

## الأدب الشعبي العربي أجمل هداياه للفكر العالمي

في سنة ١٧٠٤ ظهر في باريس الجزء الأول من الترجمة الفرنسية التي صنعها أنطوان جالان Antoine Galland (١٦٤٦ - ١٧١٥ م) لقصص ألف ليلة فاثارت في الناس عاصفة من الإعجاب والتشويق ، ومع أن الحكايات التي يتضمنها المجلد الأول من ألف ليلة وليلة ليست أحسن ما في تلك المجموعة الفريدة من الأدب الشعبي العربي . إلا أن إعجاب الناس بذلك المجلد الأول كان عظيماً ربما لأنه يتضمن في بدايته الوعاء العام الذي يربط الحكايات كلها بعضها إلى بعض ، وهو موضوع الملك شهريار وأخيه الملك شاه زمان ، وهو الموضوع الذي اشتهر عندنا باسم شهر زاد بعد أن أعاد توفيق الحكيم صياغته في قالب فكري مسرحي رفيع يدور حول طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة .

هذا الوعاء العام في صورته كما وردت في أصل ألف ليلة بالغ الجمال والفتنة ، فهو ليس مجرد حكاية الملك شهريار مع شهر زاد ابنة الوزير التي ابتكرت حكاية تسلية الملك كل ليلة بحكاية تتوقف بها عند كل فجر عند نقطة تشويق أو « ساسبنس » ، لكي يبقى عليها الملك ولا يقتلها كما فعل بسابقاتها ، بل إنها تضم قصصاً أخرى لا تقل عن هذه طرافة ، فهناك قصة الملك شاه زمان مع زوجته والعبد الذي فاجأهما معاً فقتلها ، وهناك قصة شهريار وامراته وجواربها العشرين وما كن يفعله كل يوم من خيانة شهريار ، وهناك حكاية الجنى الذي اختطف فتاة فانتة ليلة عرسها وحبسها في صندوق وضعه في قاع البحر حتى إذا اشتاق إليها مضى فأخرجه وفتحها وأخرج البنت واستمتع بها ثم استلقى واضعاً رأسه على حجرها ساعة ، ثم أعادها إلى الصندوق ووضعها في قاع البحر ومع هذا كله فقد استطاعت هذه الماكرة أن تنتقم منه : فقد خانتها مع سبعمائة وخمسين رجلاً أضافت إليهم شهريار وأخاه ، وحكاية هذه البنت مع الجنى هي التي جعلت الأخوين يتعزيان عما فعلت نساؤهما معهما ، لأن المرأة منا - كما قالت هذه الماكرة للملكين الأخوين - إذا أرادت أمراً لا يغلبها شيء ، كما قال بعضهم :

لا تـأـمـنـن إـلـى النـسـاء      و لا تـثـق بـعـهـ و دـهـن  
فـرـضـاً و هـن و سـخـطـهـن      و الـغـدُرُ حـشـو و ثـيـابـهـن  
بـحـدـيـث يـوسـف فـاعـتـبـر      مـتـحـنـزاً مـن كـيـدـهـن  
أـو مـا تـرى إـبـلـيـس (م) انـسـرـج أـدَمَـا مـن أـجـلـهـن

هذا الوعاء القصصى الطريف الذى يخرج من القصة ومن هذه الأخيرة قصة ثالثة ورابعة وخامسة وكلها قصص طريف جذاب شائق ، والقصص كلها ساذجة فى ظاهرها ولكنها عميقة فى باطنها ، هذا كله إلى جانب ما أطلع به الرجال منذ الأزل من الخوف من غدر النساء وما تناولته الأخبار من ذكاء النساء وسعة حيلهن ، هذا هو الذى أعجب الفرنسيين وجعلهم يقبلون على مطالعة هذا النوع الطريف من القصص والحكايات ؛ لأن القرن الثامن عشر كله كان فى معظم بلاد أوروبا عصر تدهور خلقى ، فلكل رجل مهما كان مركزه من الملك إلى الوزير إلى القس إلى المحترف الصغير له عشيقته أو عشيقاته والسيدات المستهترات Les Jemes Go Lantes كن طرائف ذلك المجتمع ، فوجد الناس فى حكايات ألف ليلة وليلة ما هو أطرف وألطف مما كانوا يحكونه عن عشيقات الملوك والفرسان والقساوسة ، وفى ذلك العصر وقعت حادثة الدوقة الغنية صاحبة الأملاك الواسعة فى جنوبى فرنسا ؛ فبنت ديرًا جعلت فيه أربعين راهبًا يخبزونها فى ديرهم براميل النبيذ التى تملكها الدوقة فكانت تخرج لهم كل ليلة برميلاً فيتهافتون عليه يشربون كأساً بعد كأس بدلاً من الصلاة ، فإذا استولت الخمر على رؤوسهم أقبلت وقضت ليلتها معهم ، وعندما اعترض على ذلك واحد منهم وحرض إخوانه على رفض الشراب للانصراف للعبادة والصلاة ؛ أمرت بإخراج أربعين برميلاً أغرقت فى كل واحد منها راهبًا ، وقالت : هذا جزاؤكم رفضتم أن تشربوا الخمر ففيتها وبها تموتون !

طبيعى إذن أن يقبل الناس فى فرنسا على تلك القصص العربية التى قدمها لهم انطوان جالان فمضى يقدم لهم جزءاً بعد جزء حتى بلغت أجزاءها تسعاً عام وفاته سنة ١٧١٥ ، وبعد عامين من وفاته نشر المجلد الحادى عشر سنة ١٧١٧ م .

وتوالى طبعت هذا المجموع الفريد من القصص الشعبى الذى أصبح عنوانه علماً

من أعلام الفكر العالمي : Lesmilleetuna Nuits Cantes / Arabes Tsactuits en

Jancai وترجم إلى الإنجليزية بجزء من عنوانه فسمى Arabian Nights .

وكما هي عادة الأوروبيين في كل ما يرون فيه نفعاً لهم أو متعة وطرافة مضوا يبحثون ويدرسون ، فتدافع العلماء يبحثون عن مخطوطات ألف ليلة وتاريخها ويترجمونها إلى لغاتهم ، وعندما طبعت مطبعة بولاق نص ألف ليلة الكامل سنة ١٨٢٥ م ، أقبل عليها وترجمها إلى الإنجليزية ذلك المستشرق الأيرلندي العجيب إدوارد وليام لين الذي ترجم ضمن ما ترجم قاموس لسان العرب لابن منظور كاملاً ، ترجم هذا الرجل ألف ليلة كاملة وأخرجها للناس في عشرة مجلدات ( ١٨٢٨ - ١٨٤٨ م ) وأسرع المستشرق الألماني مكسميليان هاينست Macmilian Hapnsht إلى تونس حيث أتى بنسخة مخطوطة من ألف ليلة وترجمها إلى الألمانية ونشرها في بريزلاد ( ١٨٢٥ - ١٨٤٣ م ) واستمرت الترجمات تتوالى والأبحاث تتوارد حتى فرغ لألف ليلة واحد من أكابر المستشرقين الألمان وهو أنيوليتمان Enuu Littmann ونحن نعرفه جيداً فقد كان من أساتذة الجامعة المصرية الأهلية التي أنشئت سنة ١٩٠٨ م ، وأخرج للناس فيما بين سنتي ( ١٩٢١ - ١٩٢٨ م ) ترجمة ألمانية للنص الكامل المحقق دون تهذيب أو تعديل لألف ليلة في خمس مجلدات ، ثم أتبعها بمجلد سادس وضمناه أوسع وأعمق دراسة لذلك الأثر الأدبي العظيم الذي أصبح معتمد الباحثين جميعاً عن أصل هذه الحكايات وتاريخها وتحليل مادتها ، وتتبعها منذ كانت أسطورة هندية لا قيمة لها نقلت إلى الفارسية فأخذت بعض المادة القصصية من هناك ، لأن المفكر الإيراني تميز بالميل إلى القصص وابتكار الصور القصصية ، ولكن الإضافة الفارسية قليلة والذي زاد في أهميتها في الظاهر هم العرب الذين انتهت إليهم صياغة ألف ليلة فقد أحبوا أن يضيفوا إلى قصصهم طابع الغرابة فبحثوا لحكاياتهم عن مواطن بعيدة عجيبة حتى يستطيعوا أن يطلقوا لخيالهم العنان ، وهنا نجدهم يمعنون في البحث عن المواطن العجيبة فيقولون مثلاً : حكى والله أعلم أنه كان فيما مضى من قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك من ملوك ساسان بجزائر الهند والصين صاحب جند وأعوان وخدم وحشم وله ولدان ، فكيف يكون من آل ساسان ثم يكون بجزائر الهند والصين ؟

وهذا يدل على أن هذه القصة قصة الملك شهريار وأخيه شاه زمان ، دخلت بلاد

العرب بدائية جدًا أتية من أصل بعيد وراء إيران لم يتبين القصاص الشعبي استحالة وجود ساسان في جزائر الهند والصين ؛ لأنه في الحقيقة كان يطلب الغريب البعيد في ذاته دون تدقيق .

وقد أخذت قصص ألف ليلة صورتها الأولى في بغداد ربما في القرن الهجري الثالث التاسع الميلادي ، لأن المسعودي وهو من أهل القرن الرابع الهجري يذكرها باسمها الفارسي : هزار إنسانه ( أى ألف خرافة ) وقال : والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجارياتها « كذا في طبعة بولاق » ، أما في الطبعة المصرية الجارية وهى طبعة محمد على صبيح فتقول ودايتها والأصح أختها ، وهما شيرا زاد ، ودينار زاد ، ومثل كتاب فرزه وسيماس وما فيها من أخبار ملوك الهند والوزراء ، ومثل كتاب السندباد ، ومثلها من الكتب في هذا المعنى .. ( مروج الذهب طبعة باريس ١٩١٤ ج ٤ / ٨٩ - ٩٠ ) وهذا الخبر يدل على أن ألف ليلة في دورها البغدادي كانت تقتصر على حكاية شهر زاد .

وفي القاهرة ربما ابتداء من العصر الفاطمي - أخذت مجموعة القصص تتجمع وتأخذ صيغة وأسلوبًا واحدًا - وأضيف إليها حكايات جديدة ذات طابع مصرى خالص ، وبعض هذه الحكايات المصرية جميل محكم الصياغة مثل حكاية مسرور التاجر مع معشوقته زين الموصف ، وبعضها ضعيف مبتذل مثل حكاية أبى صير وأبى قير ، ولكن القصص كلها أعيدت صياغتها في القاهرة والغالب أن إعادة الصياغة تمت على السنة القصاصين الشعبيين في المقاهى ، ولم تكتب القصص إلا في منتصف العصر المملوكى ، فإن الأسلوب ركيك جدًا بل عامى وجهل الكاتب واضح فهو لا يكاد يقيم عبارة صحيحة ، ومن عجب الأمر أن هذه الركافة نفسها تضيف على القصص حلاوة خاصة ؛ لأنها تؤكد لنا أن هذا القصاص صادق ، وأنه صانع وواضعه مباشرة دون تزويق ، وهذا هو الجميل ؛ لأن ألف ليلة في هذه الصياغة تعتبر تصويرًا للأحوال الاجتماعية التى صدرت عنها والعقلية التى كتبتها حتى الشعر هنا عامى الروح وإن كان صاحبه - الكاتب - قد حاول أن يجعله شعرًا فصيحًا ، خذ مثلاً هذه الأبيات الطريفة التى تقرأها في قصة الصياد مع العفاريت :

يا حرقرة الدهر كفى      إن لم تكفى فَعَفَى  
فلا بحظى أعطى      ولا بصنعة كفى  
خرجت أطلب رزقى      وجدت رزقى توفى  
كم جاهل في ظهور      وعالم متخفى

ونحن عندما نقرأ ألف ليلة ينبغي أن نذكر دائماً أنها تصور أحلام الفقراء المتاعيس ، فإن المواطن المسلم أو العربي المقهور وضع أمله في العفريت الذى يعصف بالسلطين ، وانتظر الخلاص من تعاسته في كرم الخالق سبحانه القادر على العطاء من غير حساب ، فكثرت الكلام عن الكنوز والسحرة والساحرات .. والفقير المعدم الذى سئم امرأته التى يراها أمامه ليل نهار فى أسماها البالية ووجهها البائس جلس فى مقهى فى الليل يستمع إلى أوصاف بدر البدور وست الحسن والجمال وتصورها بين يديه ، وحلّق به الحلم فتصور أمه قمر الزمان ، وهنا تبدو لنا أوصاف النساء الجميلة - والخارجة عن الحشمة أحياناً - تصويراً لأحلام أهل تلك العصور وشوقهم إلى المرأة الجميلة البيضاء السمينة التى لا يتمتع بها إلا الممالك والسلطين ، واستمع مثلاً إلى صورة الجمال الأنثوى كما تصوره الحَمَّال فى قصة الحَمَّال والبنات : « فنظر الحمال إلى من فتح له الباب فوجدها صبية رشيقة القد ، قاعدة النهد ، ذات حسن وجمال وقد واعتدال ، وجبين كَفُورَ الهلال ، وعيون كعيون الغزلان ، وحواجب كهلال رمضان ، وخدود مثل شقائق النعمان ، وفم كخاتم سليمان ، ووجه كالبدر فى الإشراق ، ونهدين كرمانتين باتفاق ، وبطن مطوى تحت الثياب كطى السجل للكتاب » . فهذه فتاة الأحلام إذن كما تصورها الحَمَّال الشقى وهو طول اليوم يحمل الأثقال ، وقد تعود أن يحمل البضائع وحوائج الناس حتى الباب فقط ، وهنا يعطى أجره الزهيد ويصرف ، ولكنه فى عالم الأحلام يفتح أمامه الباب على يد هذه الجارية الحسنة ويدخل القصر فيجد بنات أخريات يداعبهن ويطعمهن ألد الطعام ويسقيهن أحسن الشراب » .

ولكن أكثر ما فتن الناس فى الغرب فى ألف ليلة هو ذلك الخيال الخصب فى رحلات السندباد مثلاً ، فهناك خيال طلق يخلق بحاراً ومحيطات وسفنًا وأسماكاً فى حجم الجزائر وطيورًا تفوق فى ضخامتها أحجام أضخم الطائرات فى أيامنا ، وطائر الرخ

يبدو لنا كأنه طائرة جامبو هائلة والسندباد مربوط في رجل الرخ ، وكأنه معلق في صندوق عجلات الطائرة ، وهنا عفاريت وجنيات ومردة ضخام لكل منها عين واحدة وسط وجهه ، وهنا أخطار تتوالى ومغامرات بلا نهاية ، وفي كل مرة يعود التاجر سليماً معافى إلى البصرة ليحمد الله الرحمن الرحيم ويسجد له سجود الشاكرين ، ومثل هذا يقال عن مصباح علاء الدين والمارد الذى يخرج من القمقم وحكايات على بابا والأربعين حرامى ، إلى آخر هذا القصص الجميل الذى كان سمار المقاهى يهريون من عالم حياتهم الكثير ، والقصاص يحكى وشاعر الربابة ينشد ثم ينقضى ذلك كله وينفض الشاعر ويعود التعميس إلى بيت الشقاء .

وحكايات ألف ليلة وليلة تسمى الظن بالنساء ، وهذه هى صورة المرأة فى عقل الرجل فى العصور الوسطى ، وإذا كان العربى المسلم قد وكل المرأة إلى دينها وأمانتها وحسن تربيتها ، فإن الأوروبى لم يطمئن حتى إلى ذلك وابتكر حزام العفة تلبسه المرأة طوال غياب زوجها ، ولكن مؤلفى القصص لم يحرموا المرأة نصيبها من الأحلام فهى تحلم بالشباب الجميل والرجل الذى يملأ العين ، ولهذا ابتكروا للنساء صورة التاجر الشاب الوسيم الحسن البصرى والأمير قمر الزمان ، وهنا أيضاً نجد المرأة ترسم صورة محبوبها الذى تحلم به وتُمنى نفسها بالحصول عليه والهرب إليه من زوجها الشقى الفقير .

وبعض حكايات ألف ليلة أصبحت موضوعات قصصية ترددت بعد ذلك فى الأدب العالمى كله ، ولم تلق حكاية من النجاح فى هذا المجال ما لقيته قصة « النائم الذى صحا » وهى تحكى لنا قصة رجل فقير تعمس أدركه النوم إلى جوار حائط فى الطريق فمر به رجل غنى أو ملك فى موكبه فزاد التندر به فأمر غلمانه بأخذه إلى القصر وهناك سقوه حتى غاب عن السوعى ، ثم ألبسوه فاخر الثياب بعد أن أدخلوه الحمام فلما أفاق وجد نفسه فى ثياب الأمراء فى قصر كأنه فى جنة الخلد ، ووضعوا أمامه الذ الأظعمة والأشربة ، وجعلوا يتسلون بما يصدر عنه وهو يتصور أن الله رحمه وأدخله عالم السعداء إلى آخر أيامه ، فلما فرغوا من التندر به انتظروا حتى غلبه الشراب ونام ، فلما صحا وجد نفسه فى نفس أسماله التى كان فيها عندما وجدوه ناعساً إلى جوار الجدار فى الطريق .

هذا هو القالب الذي أخذهُ الأديب الأسباني الأشهر كالديرون دي لباركا ، وصبه في مسرحيته الخالدة « إنما الحياة حلم » La Nida es Suena وحكى فيه حكاية الملك سجيمنونو الذي فقد ملكه في عالم الواقع ووجده في عالم الأحلام ، وفي مونولوجاتها الطويلة عرض كالديرون فلسفته في الحياة وذلك أيضًا هو القالب الذي صب فيه شكسبير مسرحيته « النوم » The Tangelst واستعار الخيال العربي ليحكى فيه قصة الملك الذي نفاه أعداؤه في جزيرة ، وهناك التقى بالصبي الملائكى اللطيف اربيل .

وفي نهاية مجموعة ألف ليلة تجد قصة جميلة سأحكيها لك في مقام قائم بذاته بعد الفراغ من هذه الدراسة هي قصة الجارية تودد ، وهي حكاية جارية معلمة فاقت العلماء بعلمها وأحاطتها بكل العلوم الإسلامية في العصر الذهبي ، وتمتعت إلى جانب ذلك بوفاء عظيم ، هذه القصة التي وصلت إلى الأندلس قبل أن يترجم جالان ألف ليلة إلى الفرنسية وقد أخذها أديب أسباني آخر كبير هو لاب دي فيجا Lap De Vega وأنشأ على مثالها قصة الفتاة تيودور La Dancelle Teadar حتى الاسم مأخوذ عن العربية ، فإن الذين ترجموا قصة الجارية تودد ، فأخذها لاب دي فيجا وجعلها الأنسة تيودور ، وألف ليلة حافلة بالقصص القصيرة التي ترد في تضاعيف الحكايات الطويلة ، وهذه القصص القصيرة دائماً حكايات حلوة قصيرة ، وقد أشرت فيما سبق إلى قصة الفتاة التي خطفها المارد وحبسها في صندوق وضعه في قاع البحر ليخرجه ويستمتع بها وقتما يشاء ، فانتقلت منه وخانته سبعمائة واثنتين وخمسين مرة ، فهذه الحكاية أخذها أناتول فرانس وحكاها بأسلوبه الجميل المشرق فلقبت من الناس إعجاباً عظيماً ، أما حكاية قمر الزمان وبدر البدور فقد أخذها الموسيقى النمساوي فرانز ليهار وأنشأ عليها أوبريت من أطف ما عمل وسماها « أبو الحسن » .

ويطول بنا الكلام إذا أردنا أن نتتبع الأثر البعيد الذي كان لألف ليلة في الفكر الغربي كله ، فإن تلك المجموعة من القصص الشعبي أصبحت من زمن طويل جزءاً من الفكر الغربي بل الحضارة الغربية ، وما أكثر الروايات والمحللات والعمود التي تحمل أسماء ألف ليلة وشهر زاد وعلاء الدين والسندباد وعلى بابا ، والسبب في ذلك أن هذه الحكايات الشعبية التي تبدو في مجموعها ساذجة بل بدائية تنطوي على حكمة إنسانية كبرى هي قصص صادق ، خرج من قلوب ناس طبيين فلقى القبول من كل القلوب

الطيبة ، ودون تكلف أو حتى تحمل وجدت الإنسانية في تلك الأحلام حكمة الحياة الكبرى فالحياة كلها في نهاية الأمر حلم ، وهنا في ألف ليلة أحلام الحب والنعيم والغنى والجاه والمغامرات والعجائب والإيمان بالله وقدرته ، وهذه كلها موضوعات إنسانية عامة ، ومن هنا جاءت عالمية ألف ليلة وهى رغم ما يبدو فيها من سوء الظن بالدنيا لا تفقد الأمل في فرج الله أبداً ، وحكاية معروف الإسكافي أكبر مثال لذلك ، فذلك الإسكافي المسكين الذى يعانى غصص الحياة من امرأته سليطة اللسان .. « فاطمة العرة » ينتهى به الأمر إلى الهرب من وطنه نجاة بنفسه من تعقب امرأته له وشكواها إياه إلى القاضى مرة بعد أخرى ، فيهرب إلى عوالم بعيدة قاصية حيث يصيب المال الكثير ثم يدركه الفقر مرة بعد أخرى ، وفي النهاية يرزق المال الوفير ثم يصبح ملكاً عظيماً ، ويتزوج امرأة جميلة فينجب ابناً وسيماً وفاطمة العرة تلاحق معروفًا حتى تكاد تظفر به وتراه نائماً وفي أصبعه خاتم سليمان فتسللت إلى القصر ومدت يدها لتسرق الخاتم وهنا هوى عليها سيف الأمير ابن الملك معروف وهنا تقرأ : « ثم إن الملك معروفًا زعق على أتباعه فأتوه مسرعين فأخبرهم بما فعلته زوجته فاطمة العرة ، وأمرهم أن يأخذوها ويحطوها في مكان إلى الصباح ففعلوا كما أمرهم ، ثم وكل بها جماعة من الخدام فغسلوها وكفنوها وعملوا لها مشهداً ودفنوها ، وما كان مجيئها من مصر إلا لترابها والله در من قال :

مشيئها خطى كتبت علينا      ومن كتبت عليه خطى مشاها  
ومن كانت منيته بأرض      فليس يموت في أرض سواها

وهناك نوع آخر من الأدب الشعبى العربى نجده دائماً على هامش الحياة الأدبية لأن أصحابه كانوا ثواراً على مجتمعهم منكرين لما فيه ، وهم في الأدب الجاهل يسمون الشعراء الصعاليك لأنهم كانوا أعزاء النفوس ، لا يدخلون في قوالب الحياة الراتبة ومثالهم المشهور في الجاهلية الشنفرى وهو عمرو بن مالك الأزدي المتوفى في الجاهلية سنة ٥٢٥ م ، ولم يعجبه قومه لأنه اتهمهم بالجبن ، فانخلع عنهم وانضم إلى الشعراء الصعاليك وقال :

وفي الأرض منى للكريم من الأذى      وفيها لمن شاء القلى متعزل

وخاصم قومه وأنشأ فيهم لاميته المشهورة بلامية العرب ومطلعها :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم      فإنى إلى قوم سواكم لأميل  
ولى دونكم أهلون سيد عملس      وأرقط زهلول وعرفاء جيل

وخرج إلى البرية وصار يعيش من الغارة على القبائل التى يجبن رجالها عن الدفاع عن أنفسهم وحماية الضعفاء ، مثله فى ذلك مثل عروة بن الورد وأهله الذين لجأ إليهم وهم الصعاليك الجوالون أمثاله الذين يالفون القفر والوحوش أكثر مما يالفون الناس ، ولامية العرب لم يضعها نقاد الأدب العربى بين عيون الشعر الجاهل بل إن محمد بن سلام الجمحى صاحب « طبقات فحول الشعراء » لم يذكر فى كفاية الشنفرى أو عروة ابن الورد ، مع أن لامية العرب هى أجمل ما قيل فى العرب وأصدقه وأكثره إخلاصاً ، وقرأ عن أولئك الصعاليك كتاب الدكتور يوسف خليفى ل ترى أن الصعاليك كانوا فى أرفع مستويات الشاعرية والصدق الأدبى ، بل إن البروسيين الألمان عندما وضعوا نشيدهم القومى أخذوا من لامية الشنفرى بعض معانيها ، بعد أن ترجمها إلى الألمانية المستشرق النمساوى هامر بورجشتال Hammer Burgtell .

وعلى طول تاريخ الأدب العربى يسير تيار أدب الصعاليك ، وهو يدخل ضمن ما نسميه اليوم بالأدب الشعبى ويتجلى هذا التيار الشعبى فى أدب المقامات : قطعة أدبية مصوغة فى قالب من السجع تقص حكاية صعلك ذكى مثقف يعيش من التسول والكدية وسعة الحيلة ، فأدب المقامات صعلك بموضوعه مسجوع متكلف بقالبه ، وهذا التكلف أفقده قيمته ، وفى القرن الرابع الهجرى يظهر بديع الزمان الهمذانى وهو أبو الفضل أحمد بن الحسين المتوفى سنة ( ٢٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ) ويصوغ إحدى وخمسين مقامة كل منها مشروع قصة لا تكمل أبداً ، إنما هى معرض ألفاظ وسجعات وحيل وطرائف يرويها أديب وهمى يسمى عيسى بن هشام ، وبطلها صعلك متتكر فى صورة تاجر متجول يدعى أبا الفتح الإسكندرى وهو صعلك واسع الحيلة لطيف المدخل بليغ العبارة خفيف الظل يقول : إنه أسعد أهل زمانه لأنه يعيش بالتسول فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض وخليفة ذى القرنين الذى بلغ المشرق والمغرب حيثما حل لا يخاف البؤس يسير حيث شاء يأخذ أطايب كل بلدة .

وبعد ذلك بنحو القرن تظهر مقامات الحريري ، وهو أبو القاسم محمد بن علي الذي ولد في البصرة وعاش سواحا يتسول بمقاماته ( ٤٤٦ - ٥١٦ هـ / ١٠٥٤ - ١٢٢٢ م ) وينشئ خمسين مقامة على غرار مقامات البديع ، ولكنها أقل قيمة لإسراف الرجل في السجع والإغراب ، وراوى مقامات الحريري رجل وهمى هو الحارث بن همام وبطلها أبو زيد السروجي وهو صعلوك متسول صاحب حيل ، حياته كلها احتيال للحصول على المال والطعام ولكنه واسع الثقافة حاد الذكاء بليغ العبارة ، وقد بلغ الحريري بمقاماته من الشهرة ما لا يستحق ، بل إن سلفستردى ساس المستشرق الكبير نشر المقامات في أدق صورة وعمل لها فهرسا للألفاظ لأن الناس كانوا يقولون في القرن الماضي : إن مقامات الحريري أبلغ ما أنشأه العرب مع أنها أسوأ وأثقل وأكذب مقال للنثر العربي .

ولكن الصعلوك الحقيقي الذى تستطيع أن تقول إنه أديب موهوب صادق ومتسول متكسب هو الوهراني التلمساني الذى اكتشفنا مقاماته أخيرا ، وقام على نشرها الأستاذان إبراهيم شعلان ومحمد نغشى ( القاهرة ١٩٦٨ ) ونحن لا نعرف عن الوهراني إلا أنه ركن الدين محمد بن محرز بن محمد ، وأنه توفى سنة ( ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ) ، ولم يؤرخ له أحد لأنه كان صعلوكا يعيش على هامش الحياة الفكرية التقليدية ولكن كتاباته تكشف عن نفسه وظروف حياته لأنه كأى صعلوك في تاريخ الفكر الإنسانى يعيش الحياة الواقعة دون تزويق ، وهو نفسه جزء من ذلك الواقع وهو رجل مثقف جدا ، ففي المقامة الأولى من كتاب مقاماته وصنামاته يتحدث ساخرا عن كل دول زمانه من أقصى الغرب إلى إيران ويختمها بقوله متحدثا عن عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين في المغرب ، فصنعت له ذوو التيجان وخدمة الإنس والجان ولو أن للقلم لسانا وللورقة إنسانا لتأملت وتظلمت ولأنشدتك في الملا قول الشيخ أبى العلاء :

**جلوا صارمأ وتلوا باطلا وقالوا : صدقنا فقلنا نعم**

ولكن السكوت عن هذا أنجح ومسألة الأفاعى أصلح ، وهذه مقالة مفكر حر يشعر أنه مخنوق ولا يستطيع أن يفصح عما في صدره ، والمقام الأول في الكتاب ( ص ١٧ وما بعدها ) تحفة أدبية فكرية يصف الرجل فيها رحلة تخيلها في عالم الإسلام لا تقل طرافة عن « رسالة الغفران » ، بل هى أشد لذعا وأقسى نقدا ، والمقام مصوغ في قالب

مقامة بديعة ذات خيال واسع وعلم عظيم ، وفيها يلم بالجنة والنار ويستعرض رجال التاريخ الإسلامى من أيام معاوية بن أبى سفيان ويجعلهم كلهم فى النار .

وإذا كان بديع الزمان قد تستر خلف شخصية الصعلوك عيسى بن هشام ، والحريرى اخترع شخصية الصعلوك أبى زيد السروجى ، فإن الوهرانى فى مقاماته هو الصعلوك نفسه ، ومن هنا فهو يصور لنا شخصية الصعلوك أصدق تصوير . والطريف أن شخصية الصعلوك انتقلت إلى الأدب الإشبانى ربما عن طريق مقامات الحريرى ، فقد اشتهر أمرها فى الأندلس وأكبر شراح مقامات الحريرى هو الشريشى الأندلسى . وقد فتن أدباء الإشبان خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر بشخصية الصعلوك العربى ، ونشأ عندهم نوع من القصص الجميل يسمى بقصص الصعاليك Lanaveliareaco والبكارو Picora الإشبانى هو بالضبط الصعلوك العربى . وقصص الصعاليك خلف لنا آثارًا قصصية بديعة فى الأدب الإشبانى أشهرها وأجملها هى قصة لاتاريو دى تورميس La tari llede tormes التى تنسب أحيانًا إلى رجل يسمى قزمان الفاراتشى Cuzmande Alfarache ربما كان عربياً مورسيكياً متنصراً اسمه قزمان بن الفرج ، وتنسب أحياناً إلى ماتيو اليمان Mates Alemak ولاتاريو بطل القصة غلام مسكين لطيف يعمل قائداً لقس أعمى غاية فى التجل ، ومغامرات لاتاريو أو عصا الأعمى من هذا القس البغيض ، وغيره ذات طابع عربى خالص مقتبس من المقامات العربية ، وواحد من أكبر الأدباء والمؤلفين الإشبان وهو منندز يلايو Marcaline Mauomler يفخر بالفوفيلابيكاريسكا ويقرر أنها من أجمل هدايا الفكر العربى للفكر الإشبانى .

وكنت أحب أن أحدثك بإفاضة عن أعظم صعلوك فى تاريخ الأدب الشعبى العربى ، وهو الزجال الشاعر الأندلسى أبو بكر محمد بن قزمان المتوفى ٢ أكتوبر ١١٦٢م خلال العصر الموحدى ، وهو الزجال القديم الوحيد الذى عثرنا على ديوانه كاملاً وهو مكتوب بلغة أندلسية : عربية أسبانية مغربية ، ولكى تفهم ابن قزمان لا بد أن تعرف هذه اللغات ولا بد أن تكون عالماً بفقهِ اللغات أى فيلولوجياً ، ولهذا فإن أحدًا من العرب لم يقرأ أزجال ابن قزمان إلا الدكتور عبد العزيز الأهوانى وكاتب هذه السطور ، أما بقية من درسوه وفهموه فمن الأوربيين : خوليان ريبيرا ونيكل وليفى بروفستال وخاصة

غرسية غومس ، وقد نُشِرَ الديوان وطُبِعَ بحروف لاتينية بعنوان El lanciones de lamguromon وألف فيه غرسية كتاباً ضخماً في ١٥٠٠ صفحة عنوانه To de Jlr Gyman أي ابن قزمان كاملاً ، وهو يؤكد أن هذا الرجل أعظم عبقرية شاعرية أندلسية وهو على حق ، وابن قزمان صعلوك يسكن حجرة يصفها هو بأنها قاحلة مع أن أباه أو عمه كان وزيراً ، وأزجاله كلها تصوير واقعي رائع للمجتمع الأندلسي في عصر التدهور وهو سكير وزير نساء ومتسول ، ولكنه موهوب طريف ساحر في أسلوبه وآية في الذكاء ..

\* \* \*

## عَصْرُ الرَّكُودِ وَمَدَاهُ

الشائع الذي يجرى عليه التاريخ عندنا أن يقسم التاريخ العباسي إلى عصرين الأول والثاني : فالأول هو عصر القوة . والثاني هو عصر الضعف والتدهور . وقد آن أن نعيد النظر في هذا التقسيم ، فإن العصر العباسي الثاني وهو عصر التدهور طويل جداً يمتد من ( ٢٢٢ تقريباً إلى ٦٥٦ هـ ) ، وهي سنة استيلاء المغول على بغداد وقضائهم على الخلافة العباسية فيها ، ثم إن الدولة العباسية والمجتمع الإسلامي من حولها دخل في تطورات كثيرة غيرت شكل الخلافة وطبيعتها وصورة المجتمع الإسلامي وخصائصه خلال تلك الحقبة الطويلة جداً من السنين ، ولهذا فإنني أقترح هنا - وهذه وجهة نظر - أن نقسم العصر العباسي إلى خمسة عصور لكل منها طابعه وخصائصه .

ومن هنا فقد أصبحت تسمية « العباسية » زائفة وتحتاج إلى استبدال ، وما دام هذا التاريخ الذي أكتبه يمثل في جملته وجهة نظر جديدة ودعوة إلى إعادة النظر في التاريخ الإسلامي العام وحضارته وتاريخ الفكر العربي ، فإنني أطرح رأياً جديداً وتقسيماً جديداً فيما يلي :

١ - العصر العباسي الأول : وهو عصر قوة الدولة وصعودها وازدهارها السياسي .

ويمتد من بداية خلافة أبي العباس السفاح وينتهي بنهاية خلافة أبي جعفر هارون الواثق بالله ابن المعتصم ( ٧٥٠ - ١ ديسمبر ٨٤٧ م / ١٣ ربيع الأول ١٣٢ - ٢٢ ذى الحجة ٢٢٢ هـ / ١٣ نوفمبر ) .

٢ - العصر العباسي الثاني : وهو عصر تدهور الخلافة وسيطرة الجند التركي عليها من بداية خلافة المتوكل أبي الفضل جعفر بن المعتصم إلى بداية عصر أمراء الأمراء ، أى القادة المفوضين في الحكم باسم الخليفة المستضعف ، ويدخل فيها عصر سيادة البويهيين وإلهم تنتهى ذروة عصر أمراء الأمراء ( ٢٣ ذو الحجة ٢٢٢ إلى سنة ٤٧٤ هـ / ديسمبر ٨٤٧ ) إلى أن تبدأ سيطرة البويهيين على الخلافة في ( جمادى الأولى ٣٣٤ / ديسمبر ٩٤٥ ) على يد معز الدولة أحمد بن بويه وتنتهى بطغرل بك أول سلاطين السلاجقة سنة ٤٤٧ هـ .

٣ - العصر العباسي الثالث : ويبدأ من نهاية العصر البويهي وبداية العصر السلجوقي أثناء خلافة أبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله ابن القادر وهو السادس والعشرون من خلفاء بني العباس باستيلاء طغرل بك على بغداد وتفويض الخليفة القائم بالله السلطة له ، وهذا العصر هو عصر سيادة الأتراك على شرق الدولة الإسلامية سيادة كاملة ، فلم يبق للخليفة ورجاله أو للعرب إلا سلطان ثانوي ، وينتهي باستيلاء المغول على بغداد ( ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ) ونهاية الخلافة العباسية في بغداد .

٤ - العصر الرابع : وهو ليس عباسياً ، إنما هو مغولي ؛ لأن الخلافة العباسية زالت من بغداد وسيطر المغول على شرق الدولة الإسلامية كله ، ودخلوا الإسلام وأقاموا دولة الأيليخات في إيران والعراق ويمتد من سنة ٦٥٦ هـ وهي سنة سقوط بغداد ويستمر إلى سنة ( ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م ) وهو تاريخ بداية استيلاء الأتراك العثمانيين على شرق الدولة الإسلامية أيام السلطان سليم الأول ياووز ، ويتميز هذا العصر بسيادة المغول في العراق وإيران ، والأيوبيين ، ثم المماليك البحرية في مصر والشام والحجاز وينتهي بها ببداية العصر التركي العثماني .

٥ - العصر الخامس : وهو العصر العثماني الصفوي ، وفيه قامت الدولة الصفوية في إيران وبسطت سلطانها على العراق حتى نهض الأتراك العثمانيون وأخرجوا الصفويين من العراق وأعادوه إلى سيادة السُّنة على يد السلطان سليم الأول ، أما بلاد الشام ومصر ثم بلاد ليبيا وتونس والجزائر فقد دخلت في الدولة العثمانية ، ويستمر العصر العثماني إلى دخول الحملة الفرنسية مصر ( ١٢١٥ هـ / ١٧٩٨ م ) وبه يبدأ عصر النهوض الذي سنتحدث عنه لاحقاً .

\* \* \*

وهذا التقسيم جديد ، وقد خالفت فيه التقسيمات التقليدية التي أصبحت عندنا قوالب جامدة لا تتغير ، وقد أقمت هذا التقسيم على أساس التحولات الاجتماعية والحضارية الحاسمة التي مرت على الجناح الشرقي من بلاد العروبة والإسلام ، لأن العصور هنا ليست سياسية فحسب بل هي اجتماعية ثقافية ، بل ديمغرافية أي

سكانية أيضًا ، فخلال العصرين الأخيرين ( الرابع والخامس ) ساد المغول أولاً ثم الأتراك ثم العثمانيون بعد ذلك ، والمغول بعد أن قضوا على خلافة بني العباس أسلموا ، وحملوا لواء دولة الإسلام في إيران والعراق وبعض الشام ، وأنشأوا دولاً تسمى دول الإيلخانات التى أدخل أمراؤها عناصر ثقافية مغولية في إيران والعراق ، وبعض هذه الدول شيعية وبعضها سنية ، وبلاد إيران والعراق وبعض نواحي الشام ما زالت تحمل آثار عصر الإيلخانات ، وعصر الصفويين والأتراك العثمانيين ، فالتركيب السياسى الاجتماعى في إيران والعراق الذى أدخل هذه الخلافات المذهبية الحادة التى لا تزال هذه البلاد تعانيها إلى اليوم ، فقد كانت بلاد إيران مثلاً سنية قبل الشاه إسماعيل الصفوى والشيخ صفى الدين الأرببيلى الذى تنسب إليه الدولة الصفوية كان سنياً ، ولكن إيران بدأت في التحول إلى دولة شيعية أيام الشيخ حيدر الأرببيلى الذى تولى رئاسة جماعة الصفويين سنة ( ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م ) ، ولم يكن اعتماده على الإيرانيين بل على التركمان ، ومعظم الإيرانيين الأصلاء أهل سنة إلى يومنا هذا ، ولكن الشيعية حمل لواءها التركمان وهم أتراك مسلمون من وسط آسيا ، وما زالوا موجودين إلى اليوم في جمهورية تركمانستان الداخلة في الاتحاد السوفيتى سابقاً ، وجدير بالذكر أن الشيخ حيدر الأرببيلى تزوج من سيدة مسيحية روسية هى دسبينا ايكاترينا De-spina Ecatrine ابنة ملك مملكة طريزون المسيحية وقد أسلمت هذه السيدة على المذهب الشيعى ، وعندما قامت دولة الأتراك العثمانيين وأخذت تبسط سلطانها على كل الجناح الشرقى لبلاد الإسلام نهض لمقاومته إسماعيل الصفوى ابن الشيخ حيدر ، وقد كان الأتراك العثمانيون يرفضون لواء السنة ، وكان لا بد أن يقع الصراع بين الصفويين والعثمانيين فرفع إسماعيل الصفوى لواء الشيعة وتزعمه وعمل على نشره في إيران بالقوة ، ولكنه انهزم أمام العثمانيين في معركة نشالديران الحاسمة في ( رجب ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ) ، واحتل السلطان سليم تبريز ثم أخلاها ولكنه أخرج وسط العراق وشماله من الشيعة ورد العراق إلى السنة ويخطىء من يظن أن أهل إيران كلهم شيعة ، بل إن غالبية الإيرانيين أهل سنة ، والشيعة الإثنى عشرية هناك — وهم الذين يسمون بالجعفرية — أقلية ، وكانوا مغلوبين على أمرهم بسبب استبداد التركمان الأتراك ، وكان إسماعيل الصفوي شيئاً يشبه آية الله روح الله الخمينى ، فقد كان شديد العصبية للشيعة وقد حول الشيعة إلى عصبية قومية ، الإثنى عشرية في مواجهة الأتراك

العثمانيين السُّنَّين وحتى محمد بهلوى وأخوه رضا بهلوى شاه إيران الأخير كان سُنِّيًّا ، ثم تحول إلى الشيعة الإثني عشرية ، وخلفه في ذلك الشاه محمد رضا بهلوى آخر شاهات إيران وكان أشد عصبية في شيعيته من الخميني ، وكان يضمم للعرب والسُّنة كل شر ، وقد قصمه الله وقضى عليه بعد أن كان قد أعد قوة عسكرية رهيبة وبدأ العدوان على العرب باحتلال جزر أم موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى ، وهو المسئول عن عصبية الخميني وآيات الله ، وهم أئمة الشيعة الإسماعيلية الاثني عشرية الذين يحكمون إيران اليوم لأنه بجبروته الدموى سفح دماء الألوف ومن بينهم ابن آية الله روح الله الخميني ونفاه من إيران إلى العراق ، والعراقيون لم يأذنوا له في المقام في بلادهم مراعاة لمشاعر الشاه فأخرجوه من بلادهم فلجأ إلى فرنسا واستقر في باريس .

وأخذ يعد العدة للانتقام من الشاه دفاعاً عن مصير بقايا التركمان الذين أصبحوا إيرانيين مع الزمن ، وهؤلاء هم عصب الحركة الخمينية اليوم ولولا أن ثورتهم عليه نجحت لأبادهم الشاه ، وهذا يفسر لك استبسال الثائرين مع الخميني على الشاه ، حتى أنهم كانوا يواجهون المدافع بأجسامهم ويستولون عليها ، وهذا يفسر لك أيضاً عداة الخميني للنظام العراقي الحالى الذى طرده أيام كان منفياً في العراق ، فهو عداة انتقام لا من العرب في جملتهم بل من رجال النظام العراقي البعثى الذين طردوه مجاملة للشاه ، ولهذا فإن أول مطالبهم اليوم هى إسقاط حزب البعث العراقي ونظامه . حقائق لا بد أن تعرفها لكى تفهم ما يدور هناك من صراع دموى اليوم وهو صراع غير قابل للحل إلا على أساس سقوط أحد النظامين : الخميني أو البعثى العراقي . ونحن العرب قليلاً ما نفهم حقائق تاريخنا فنتحمس ضد الإيرانيين ونحسب ذلك دفاعاً عن العروبة ، وننسى أن العراق كان في حربه مع إيران يصر على أن يسمى الإيرانيين بالمجوس ، وهم ليسوا مجوساً ولا غالبيتهم شيعة إنما الأغلبية سُنَّية ، وكيف لا يغضب السُّنى الإيراني عندما يقال إنه مجوسى ؟ وإن وحدة إيران لا بد أن تتفكك وتنشأ مكانها دويلات إيرانية تركمانية وخوارزمية وإيرانية وتركية وعربية .

وهذا الوصف الموجز لتطور الأوضاع السياسية في العراق وشمال الشام وما يليها شرقاً إلى حدود الهند يشرح لك سبب وجود الأقليات الدينية الغربية في العراق والشام حتى لبنان ، فهناك عرب وأكراد وترك و تركمان وشراكسة ، وهناك شيعة من كل لون :

شيعة وإثنى عشرية وزيدية ، وهناك سنة وهناك إسماعيلية حشاشون من الذين كانوا يريدون إبادة أهل السنة وعلى يدهم قُتِلَ نفر من أعلام السنة مثل عماد الدين زنكى أول أبطال الإسلام في حربهم مع الصليبيين ، وهناك دروز وهم بقايا مذهب شيعي ابتكره رجل يسمى حمزة الدرزي أثناء سيادة الفاطميين على بلاد الشام أيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، وهم مسلمون لفظاً لا معنى ، وهناك نصيرية علوية وهم شيعة شوانز في عقيدتهم أو شاب نصرانية يسمون أنفسهم مسلمين ، وهناك مساحرة يعبدون الشمس ، وهناك نحو عشر طوائف مسيحية منها واحدة هي من بقايا الصليبيين هم الموارنة الكاثوليك ، هنا نفهم لماذا قال ابن قيم الجوزية في إحدى رسائله : « إن شر ما في زمانه هو أنك لا تعرف من هو جارك فكل رجل من جيرارك من جنس ودين ، فلا أدري وربك أين ذهب العرب ؟ وأين ذهب الإسلام ؟ ، وهذا السؤال صادر عن ابن قيم الجوزية لا منى .

هذا الخليط الغريب من الأجناس والأشكال والأديان يضع أصبعك على السبب الأكبر فيما يسمى بالركود ، يجوب العالم الإسلامي سياسياً وفكرياً وحضارياً ، فقد انحلت عقدة الأمة واختفى العرب من ميدان السياسة والسيادة ، أو صاروا قلة لا تذكر أو تؤثر والسيادة أصبحت لأجناس المغول والترک والترکمان والأكراد والشركس القوقازيين بل الأرمن والكرج بضم الكاف ، وهؤلاء جميعاً كانوا حديثي عهد بالإسلام والذين أقبلوا على العربية منهم قليلون ، فانحط مستوى الفكر والمفكرين وكثرت المدارس وتكاثر فيها الطلاب وكلهم يدرسون المبادئ الصغيرة ، ولم تعد هناك بلاطات ملوك عظماء يجيزون أو يهبون الألوفا ثم إن البلاد في مجموعها قد افتقرت : الصليبيون نهبوا وخربوا من ناحية ، والمغول والتتار خربوا من ناحية أخرى ، بعد الحرب الصليبية الأولى جاءت الثانية والثالثة إلى التاسعة سوى القليل من الصليبيات التي لا تحسب ضمن كبار الصليبيات ، ومغامر فارس فرنسي يسمى جود فروا صاحب بوايون خرج من بلده لا يطعم في أكثر من ضربة أو نهبة يجد نفسه ملكاً على مملكة تسمى بيت المقدس ( ١٠٩٩ - ١١٠٠ م ) ، ويخلفه على العرش في قلب بلاد الإسلام ثمانية عشر ملكاً ولا تنتهي إلا سنة ١٢٤٣ م ، وفارس آخر يسمى يوهيموند يجد نفسه أميراً على إمارة واسعة قاعدتها أنطاكية ( ١٠٩٨ - ١١١٠ م ) ويعقبه على

إمارتها خمسة عشر أميرًا ولا تنتهي هذه الإمارة إلا سنة ١٢٦٨ م ، وكذلك الأمر مع إمارة الرها شمالى العراق التى استمرت من ١١١٨ إلى سنة ١١٤٤ م .

وقل شيئًا شبيهًا بذلك فى إمارة طرابلس وأحس الأوربيون ضعف ديار الإسلام فتقاطر الألوف من الفرسان والمهاجرين واللصوص على بلاد الشام وكل واحد من هؤلاء يقتل ويسرق وينهب ويستولى على الأراضى والأموال .

وأسوأ من ذلك ما فعله المغول والتتار أيام جنكيز خان الذى خرب بلاد ما وراء النهر ودمر سمرقند وبخارى ووسط إيران ، وهولاكو الذى خرب بغداد وجعلها قاعًا صفصفًا وهدم من المدارس والمساجد ألوفاً ، وأحرق وأغرق من الكتب مقادير تفوق كل تصور ، كل هذا أفقر عالم الإسلام ، وأكمل ما ارتكبه طغاة الملوك ووزراؤهم ولهذا كان شرق عالم الإسلام فى إيران والعراق قد تحول إلى خراب شامل ، وبغداد التى كانت زهرة مدن الدنيا أصبحت قرية مهجورة مخربة والعراق كله غرق فى الفقر والخراب ، وكيف يرتقى فكر فى هذه الأرض اليباب كلها ، وقرأ عن ابن واصل والمقريزى تفاصيل الأحوال التى نزلت بأمة الإسلام فى تلك العصور السوداء .

\* \* \*

من هذا الخراب كله استثنى الله سبحانه بلاد مصر ومعظم الشام فإن جهاد عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ، ثم صلاح الدين الأيوبي انتهى بإعادة الوحدة الإسلامية وقضى على اثنتين من إمارات النصارى وكسر ظهر المعتدين الصليبيين ، وأقام دولة الأيوبيين ( ٥٦٤ - ٦٤٨ هـ / ١١٦٩ - ١٢٥٠ م ) ، والمماليك البحرية ( ٦٤٨ - ٧٨٢ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٨١ م ) ثم البرجية ( ٦٨٤ - ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م ) هذه الدول صانت مصر والشام من الخراب ، بل كسرت ظهر المغول والتتار ثم استخلصت بقايا الشام من الصليبيين ، فظلت سلطنة مصر والشام حصن الإسلام والعروبة والفكر الإسلامى العربى ، فتقاطر العلماء عليها وأصبحت بلادها فى مصر والشام مثابة الفكر العربى وموئله ، ومن غرائب خصائص مصر أن الفاطميين حكموها من ( ٣٥٨ - ٥٥٥ هـ / ٩٦٨ - ١١٦٠ م ) وأنشأوا الجامع الأزهر ليكون

حصن الدعوة الشيعية وأقاموا الدعاة ومراكز الدعوة وأنفقوا الأموال ليكسبوا مصر إلى الشيعية ، ثم انتهى أمرهم فيها بعد قرنين من الزمان دون أن يخلفوا فيها شيعياً واحداً وبقيت مصر كتلة إسلامية سنّية واحدة يعيش معها أقباط مصر « وهم الطريق المستقيم بين المسيحيين في هدوء وأمانة » ، والجامع الأزهر تحول إلى أكبر مركز للإسلام والسُنّة من أيام صلاح الدين ، وما فعله هذا الجامع الجليل الذي يعتبر بحق أعظم جامعة في الدنيا منذ تحويله إلى مسجد وجامعة للسُنّة ، والجامعة أيام صلاح الدين ( ٥٦٤ - ٥٨٩ هـ ) لا يفى بتفصيله هذا الموجز ، فمن أقاصى المغرب ومن الأندلس الذهاب ونواحي المغرب ومن قلب إفريقيا إلى أقصى بلاد الملايو وأندونيسيا تقاطر طلاب العلم يدرسون ويحفظون ويعلمون والطلاب يدرسون ، بل أنشئ في ما يمكن أن يسمى بمدينة جامعية ، فقام فيه رواق المغاربة ورواق الملايو ورواق الأتراك ورواق السودان ورواق شنقيط ( مالى ) ، وغيرها وألوف بعد ألوف من الطلاب درست فيه وعاشت على جرياته وأوقافه ، وهذا الجامع وحده تكفل بإحياء علوم السُنّة جميعاً إلى يومنا هذا فوق الألف عام ، والأزهر ولد مئات المدارس ومعاهد العلم حتى إننا لنجد اليوم أزهرًا في أندونيسيا وآخر في ماليزيا وأزهرًا في السودان وإن شاء الله سينشأ أزهر في قلب أوروبا وآخر في قلب أمريكا .

في حدود سلطنة مصر والشام هذه التي أخذ الفقر يشتد عليها بسبب سوء سياسات الأيوبيين والمماليك وحيلهم إلى سرقة الرعية حتى بلغت السرقات والنهب ذروتها بعد دخول مصر والشام في دولة الأتراك العثمانيين ابتداء من سنة ( ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م ) لأن الأتراك العثمانيين بعد أن بلغت دولتهم ذروة قوتها أيام سليمان القانوني ( ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م ) تحولت إلى دولة سرقة ونهب لأموال الرعية لأن الأتراك بطبعهم يأخذون ولا يعطون وكانت إدارتهم إدارة جمع أموال ، وفي كل ناحية أقاموا جماعة من أهل القوة يقولون الضبط ( ضبط الأمن ) والربط ( ربط الأموال ) فلم يضبطوا الأمن ولكنهم ربطوا الأموال وجعلوا عليها في مصر والشام جماعة من بقايا المماليك وهم البكوات فاشتد الفقر والخراب وهبط العلم والفكر نتيجة لذلك أكثر فأكثر ، لأن بكوات المماليك في العصر التركي كانوا - حرفياً - لصوصاً بل قطاع طرق .

هذا هو الإطار السياسي والاجتماعي الذي نشأ فيه وتزايد ركود الفكر والعلم ،

والركود هنا معناه أن الفكر توقفت مسيرته لقلّة طالبه وندرة القادر عليه ، وقد تحدثت سابقاً عن بعض مظاهره وأضيف الآن تفاصيل أخرى ، فكل مذهب من مذاهب الفكر توقف بل تراجع وهبط مستوى الفكر هبوطاً تاماً ، ولم يعد يظهر من العلماء إلا قلّة ذكرنا فيما مضى بعضهم ابن خلدون الذى يعد سراجاً توهج في الظلام ، وابن بطوطة محمد بن محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ( ٧٠٣ - ٧٩٩ هـ / ١٣٠٣ - ١٣٩٦ م ) وهو أعظم رحالة في التاريخ حتى العصور الحديثة ، فهذا الرجل النابغة ولد طلعة رحالة نذب نفسه للطواف في بلاد الإسلام ووصفها وصفاً دقيقاً وقدم تقريراً عنها إلى أمة الإسلام يطمئنها فيه على أنها ما زالت بخير بعد نكبات المغول والصلبيين ، وهذا التقرير البديع العظيم يسمى « تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، وهذا الرجل الكريم يهتم جداً بذكر مراكز العلم والدراسة والزوايا والخانقاوات وزوايا الصوفية التى كان أصحابها لا يعرفون في دولة الإسلام العريضة حدوداً أو قيوداً ، والعالم المترحل والتاجر المكتسب وطالب العلم الطموح والحاج التقى يحل حيث شاء من عالم الإسلام سهلاً ويلقى أهلاً : لأن دار الإسلام واحدة وأمة الإسلام واحدة وقلوب الناس ظلت دائماً عامرة بالخير ، أما الحكام فكانوا في مجموعهم أوشاباً ضارة لا يحسب لهم في حساب الحضارة حساب .

\* \* \*

وسنخصص بقية هذا الحديث لمن حملوا لواء العلم والفكر والأدب في عالم الإسلام في عصور الركود ، وسنختار منهم خيار الخيار وسنتحدث كذلك عن استمرار ظاهرة الموسوعية والحرص على تسجيل التراث محافظة على أمجاد أمة العروبة والإسلام من الضياع .

في طريقنا إلى قلب عصر الركود يلقانا شاعر زهدى يبدع حقاً هو ابن الفارض أبو حفص عمر بن على السعدى ، وهو مصرى ولد في القاهرة سنة ( ٥٧٦ هـ / ١١٨١ م ) في بدايات العصر الأيوبي وظهوره هنا إرهاباً بانتقال مركز الفكر إلى مصر ، وقد خلقه الله روحاً صافية زاهدة في هذه الدنيا فدرس علوم الدين وتزهد وسكن موضعاً من جبل المقطم كان يسمى وادى المستضعفين لتجمع الزهاد فيه ، وتاقت نفسه إلى الحرمين

فخرج إلى الحجاز بعد وفاة والده وأقام هناك خمس عشرة سنة تفتحت خلالها عليه فيوض الحب الإلهي وتجلى عن شاعر زهدي لم يصل إليه في تاريخ الفكر الإسلامي نظير ، وطار شعره الزهدي كل مطار ، وعندما وصل مصر عائداً من الحجاز لقي أهلها مرحبين به ، واتخذ لنفسه مجلساً في قاعة الخطابة بالأزهر الشريف ، وظل يلزم مكانه يتعبد ويقول شعر الحب الإلهي حتى توفى في القاهرة سنة ( ٦٢٢ هـ / ١٢٢٤ م ) ودفن في سفح جبل المقطم .

كان ابن الفارض زاهداً صادق الزهد ، وشاعراً رائع الشاعرية ، وكان يرسل معانيه الزهدية في أبيات في رقة النسيم وديوانه حافل بأبيات مثل قوله :

صفاء ولا ماء ولطف ولا هواء      ونور ولا نار وروح ولا جسم  
وتأثيته الكبرى ديوان الحب الإلهي ، وتقع في ٧٦٠ بيتاً ليس فيها بيت ركيك أو معنى متكلف أو مبتذل ومطلعها :

سقتني حميا الحب راحة مقلتي      وكأس محيا من عنا الحسن جلت  
ومن أقواله في الحب الإلهي :  
فإن شئت أن تحيا سعيداً فعش به      شهيداً وإلا فالغرام له اهل  
وهو يتحدث في ديوانه عن الحب الإلهي الصافي ، ومن أجمل أبياته قوله :

خفف السير واتئديا حادي      إنما أنت سائق بفؤادي  
وقد شبهه مؤرخ التصوف الإسلامي رينولد نيكلسون بأعظم المتصوفات الكاتبات في الغرب المسيحي ، وهي تيريزا دي جنوس أو تيريزا دي سيجوفيا ( شقوبية بأسبانيا ) وكتابها الصوفي المسمى بالمنازل أو المقامات Les Morodas قطعة من الأدب الزهدي المسيحي البديع ، وتيريزا هذه هي التي أنشأت جماعة الراهبات الحافيات Les Des-Colzas وقد أنشأت تلك الجماعة أديرة للراهبات ومراكز لعلاج الفقراء في نواحي الدنيا كلها ، واحد منها مشهور عندنا في شبرا في مصر وهي كنيسة ست تيريزا التي يتبرك بها المسيحيون .

وإذا كان ابن الفارض شاعراً رفيع الشعر ظهر في بداية عصر الركود كأنه شهاب

شق السماء في ظلام الليل ، فلنذكر شاعرًا زهديًا آخر من أهل مصر هو البوصيري أبو عبد الله شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري ، الذي ولد في بوصير قوريدس بين الفيوم وبنى سويف سنة ( ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م ) ، وأمه من دلاص ولهذا كان يسمى نفسه بالدلاصيري .

وقد اشتهر البوصيري بقصيدته المشهورة بالبردة ، وهي من أرك الشعر وأبعده عن إلهام الشاعرية وصفائها ولكنها كانت ذبالة أضيئت في ظلام دامس فبدت للناس ولا تزال تبدو كأنها مصباح منير وقد سميت بالبردة البوصيرية تشبيهاً لها ببردة كعب ابن زهير التي ألقاها بين يدي الرسول ﷺ فصفح عنه ، وخلع عليه برده رفقا بحاله لا إعجاباً بشعره ، وكان الرسول ﷺ واسع الصدر بالناس رحيمًا ، وعلى نسق بردة كعب ابن زهير ومطلعها :

بانـت سعاد فقلبي اليوم متبول      يكبل أثرها — لم يعد — مكبول  
سار البوصيري في صياغة برده فبدأها بأبيات غزلية ركيكة صعبة على التلاوة لتكلفه فيها :

أمن تذكر جيران بذى سلم      مزجت دمعها جرى من مقلة بدم  
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة      وأومق البرق في الظلماء من أصم

وبعد عشرة أبيات من الشعر الغث يدخل البوصيري في مدح الرسول ﷺ دخولاً ثقيلاً فيه الكثير من عيوب الشعر :

وكيف ندعو إلى الدنيا ضرورة من      لولا لم تخرج الدنيا من القدم  
محمد سيد الكونين والثقليين      — من من عـرب ومن عجم  
نبينا الأمر الناهي ، فلا أحد      أبر في قول لا منة ولا نعم

وعلى هذا الغرار يستمر صاحبنا في شعره هذا حتى يتم برده مائة وثلاثة وستين بيتاً ، وأغرب ما في هذه القصيدة سيرها في آثار بردة كعب بن زهير فكان ستمائة سنة من الشعر لم تدخل على هذا الفن تعبيراً فهل بعد هذا ركود ، وقد توفي البوصيري في

سنة ( ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ) ، وهى سنة سقوط بغداد وخرابها على أيدي المغول .

وأكتفى من شعراء العصر بهذين المثالين فلا معنى لأن أثقل عليك بأمثال صفى الدين الحلبي عبد العزيز بن سرايا من أبناء الحلة في العراق ( ٦٧٧ - ٧٥٠ هـ / ١١٧٨ - ١٣٤٩ م ) وابن نباتة ( ٦٨٦ - ٧٦٨ هـ / ١٢٨٧ - ١٣٦٦ م ) وأمثالهم ، فهؤلاء ليسوا شعراء أو مفكرين ، ولكنهم نظامون مولعون بالمحسنات البديعية التى تتنافى مع أى جمال شعرى .

وعلى ذكر المحسنات اللفظية أقف بك عند أشهر نائرى ذلك العصر وهو القاضى الفاضل عبد الرحمن البيسانى ( ٥٢٩ - ٥٩٦ هـ / ١١٣٤ - ١١٩٩ م ) الذى لم يكن قاضياً ولا فاضلاً ، وهو من كُتَّاب الدولة الفاطمية ولكن أمره اشتهر أيام صلاح الدين الأيوبي فقد كان رئيس ديوان الإنشاء عنده ، ونثره كله سجع وزينة وجناس وتورية دون معنى يذكر وهو فى كتاباته أثقل من أبى القاسم الحريرى ، ومن أسف أن هذا الرجل أثقل على النثر الفنى بسجعاته وتورياته وتكلفاته حتى قضى على عنصر الإلهام والإبداع فيه وظل النثر على ذلك الشكل الجامد البارد حتى العصر الحديث .

وقد حدثتكَ سابقًا عن الحُفاظ - أى العلماء الذين حولوا أنفسهم إلى خزائن كتب وأثقلوا رءوسهم بالمحفوظ حتى لم يعد فيها مكان للتفكير - ولكننا لا بد أن نستثنى ابن تيمية وهو تقي الدين أحمد بن عبد السلام الحرانى ( ٦١١ - ٨٢٧ هـ / ١٢٦٢ - ١٣٢٨ م ) وهو شامى من أهل فلسطين وكان حافظًا وفتيها جليلاً ذا رأى وفكر ، وقد عاش فى عصر خطر تعرضت فيه الأمة للغزوات فكان يخرج للجهاد ويخوض المعارك ، وكان رجلاً حرًا جريئًا يقول رأيه دون نفاق وكان شديدًا على معاصريه من فقهاء السلطنة لا يزال يختلف معهم فيشكوه إلى السلطان فيدخله السجن ثم يخرج منه ليعود إليه حتى دخل السجن ثلاث مرات توفى فى آخرها ، وكان الرجل حنبليًا متشددًا تصدر منه بين الحين والحين آراء ينكرها أهل عصره مثل قوله : إن زيارة قبر الرسول ﷺ غير واجبة فأذى بذلك مشاعر المسلمين ؛ لأن زيارة الحرم النبوى إن لم تكن واجبة شفاعًا فهى واجبة عاطفة وحبًا .

\*\*\*



## بَدَايَةُ التُّهُوضِ

بهذا الفصل والفصل القادم والذي يليه أقف بهذه الدراسة التي أجهدت نفسي فيها - والقارئ معي - وأعتذر له عن ذلك ! فقد كانت غايتي منذ البداية أن أعيد النظر في تاريخ الفكر العربي وأعيد تقييمه ووزن رجاله وثمراته بالميزان الصحيح الذي ينبغي أن يوزن به كل عمل فكري ، وهو ميزان الصدق والجدوى العائدة منه على الإنسان ، والاحترام لحقوقه وحياته وكيانه وكرامته .. ونحن ما زلنا مع الأسف ندرس تاريخنا الفكري ونقومه ونزنه بمقاييس وضعها رجال من أهل القرن الرابع الهجري وما حوله - أي قبل ألف سنة - مقاييس هندسة الألفاظ وافتعال المعاني وتوازن العبارات وعذوبة الكلمات ، وما إلى ذلك مما ابتكره أئمة الأدب والنقد الأدبي في تاريخنا من أمثال أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابيء ( ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م ) ، والصاحب ابن عباد أبو القاسم إسماعيل بن عباد ( ت ٢٨٥ هـ / ٩٩٥ م ) وبديع الزمان الهمذاني أحمد بن الحسين بن يحيى ( ت ٣٩٨ هـ / ١٠٠٨ م ) ، والثعالبي أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل صاحب « يتيمة الدهر » ( ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ) ، وأبي الفرج الأصفهاني صاحب كتاب « الأغاني » ( ت ٢٥٦ هـ / ٩٦٧ م ) ، وأبي هلال العسكري الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد صاحب كتاب « الصناعاتين » ( ت ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م ) ، وابن رشيق القيرواني أبي علي الحسن ( ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ) ، صاحب كتاب « العمدة » ، وأخيراً شيخ نقاد الفكر والحضارة في تاريخ الفكر العربي وهو عبد الرحمن بن خلدون الذي تحدثنا عنه ، وخلاصة رأيه في الفكر والأدب والإنشاء الأدبي أن الأفكار ليست بذات قيمة لأنها متوارثة وملقاة على الطريق في متناول أي إنسان ، ولكن الإبداع الأدبي كله يتوقف على الأسلوب والألفاظ وهذا - مع تقديرنا البالغ لابن خلدون - أسوأ مقياس يقاس به الفكر ويقدر على أساسه المفكرون وخاصة إذا صدر عن رجل ميزته الكبرى أنه مفكر ، ولكنه كان ابن عصره لم يتجاوزه إلا في النادر .

ومن كل أسف أن دراساتنا الأدبية والفكرية ما زالت تقوم على هذه المقاييس والقواعد التي وضعها رجال عاشوا في عصور كان الفكر العربي كله فيها في حالة إغماء

أعقبتها غيبوبة أو « كوما » ثم تحجر وقام الجماعون بتحنيطه ووضعه في توابيت استمر فيها حتى العصر الحديث ، وما زال مؤرخو الفكر والأدب عندنا يقولون : قال الثعالبي في اليتيمة والصفدى في الخريدة ، وأبو هلال العسكري في الصناعتين ، أو ابن رشيق في العمدة ، مع أن هذه كلها آراء وأحكام ولدت ميتة وتعفنت مع الزمن ، بل الأعبى من ذلك ما تراه من بعض أساتذة الأدب في جامعاتنا اليوم من كلام في نظريات أبي هلال العسكري أو أبي بكر الصولي وابن رشيق في النقد الأدبي ، وهذا في ذاته يدل على تجمد الدراسات الجامعية عندنا اليوم ووقوفها عند الماضي وتحولها إلى مدارس وخنقاوات وتكايا ، كتلك التي كثرت في العصور المملوكية وقد تحدثنا عنها وعن أثرها في تدهور العلم والعلماء .

وهذا الكلام عن ميلاد عصر النهوض الذي نعيشه لابد أن يكون موجزًا جدًا ؛ لأن ذلك العصر بدأ من أقل من قرنين من الزمان ، فقد بدأ بالضبط في ظهر أول يوليو ١٧٩٨ عندما هبطت قوات الجيش الفرنسي وعددها ٣٢,٠٠٠ مقاتل على رأسها الضابط الشاب نابليون بونابرت شاطئ العجمى في الإسكندرية معلنة بذلك بدء نهاية عصر المماليك وبدء نهاية العصور الوسطى لعالم العرب ، أما النهاية نفسها فكانت ضحى ١٣ يوليو ١٧٩٨ عندما تمزق جيش المماليك إربًا وفر الباقون من بكواتهم وجنودهم إلى القاهرة بعد معركة امبابية التي يسميها الأوروبيون معركة الأهرام ، نحن نسميها باسم المكان الثابت ، وهم يسمونها باسم الزمان المتحرك ، وفر بكوات المماليك إلى القاهرة وحمل كل منهم ما استطاع من ماله وجواهره وسلاحه وانطلق هاربًا على وجهه إما إلى الصالحية في محافظة الشرقية في أثر إبراهيم بك الهارب إلى الشام ، وإما في أثر مراد بك الذى هرب إلى الصعيد ، وقد كان معظمهم على أى حال قد حملوا معهم أغلى ما يملكون من ثروة ؛ لأنه كما يقول جـ كريستوفر هيرولد في كتابه المتمتع عن نابليون في مصر : إن الفارس المملوكى لم يكن يعرف الخوف أو الحب وهو لا يؤسر أبدًا في الأغلب الأعم ، فهو إما منتصر في المعركة وإما مقتول وإما هارب بسرعة البرق التي هاجم بها عدوه ، وقد حمله هذا على أن يأخذ معه أينما سار ثروة لا يستهان بها من الثياب والجواهر والنقود فهو يرتدى فوق قميص من المسلمين عدة صدارات وقفاطين حريرية زاهية ويضعها كلها في سراويله الحريرية الضخمة التي يتسع السروال منها

لرجل كبير ضخم ، وكان المالك على العموم ضخاماً طويلاً فهم يختارون وهم صبيان بمعرفة خبراء وكانت ملامحهم وسيمة ، وإذا استثنينا نفرًا قليلاً من الزنوج بينهم فإنهم كانوا على حد قول ديفرنوا « رجالاً مليحي الوجوه لبشرتهم لون الزنبق » ( ص ٢٧ من ترجمة فؤاد اندراوس ) ، وإنما حرصت على إيراد صورة واحدة من هؤلاء المالك : لأنها تعطينا فكرة عن العسكريين المرتزقين الذين أذلوا أمم العرب والإسلام وحرموا أهلها من الحرية والفكر والرخاء ( انظر هنا : جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر ص ١٧٠ وما بعدها ) .

وقد قتل في هذه المعركة أكثر من نصف قوة المالك ، أما الباقون فقد هربوا بعد أن أشعلوا النار في المراكب التي انتقلوا فيها من بولاق إلى امبابة وبات أهل القاهرة الذين ملأهم الرعب على ضوء اللهب المتصاعد من السفن المحترقة ، باتوا في قلق بالغ .

نقد دهيت بلادهم بشيء لم يكونوا ينتظرون أسوأ منه ، فقد هلك سادة البلد والمدافعون عنه وأولياء أموره من المالك ومن كان معهم من الألبان والأتراك وعليهم أن يبادروا من الغد لمواجهة العدو النصراني المنتصر الغازي والتفاهم معه على ما يمكن أن يصيب بلادهم على يد هؤلاء الصليبيين الجدد القادمين بأسلحة رهيبة من المدافع والبنادق ، وبعد أيام قابل وفد من مشايخهم رجال نابليون ثم نابليون نفسه ، وتم الاتفاق بصورة مبدئية على تعهد من جانب الفرنسيين باحترام الإسلام وأهل البلد وحرمهم وتقاليدهم ، وأنشئ ديوان أو مجلس حكم مصرى فرنسى للتفاهم على النظام الجديد للبلاد ، وعاد المشايخ ومن معهم من الأعيان إلى بيوتهم والقلق يملأ نفوسهم وهم لا يعلمون أن هذا كان أعظم حادث في تاريخهم منذ قرون ، فللمرة الأولى يتولون أمور بلادهم بأنفسهم ويتفاوضون على حاضرها ومستقبلها دون وصاية مستبدين غاشمين جبناء من الحكام الأجانب والجند المرتزقة ، حقاً إنهم كانوا يواجهون عدواً أجنبياً محتلاً نصرانياً ، ولكن المصريين الآن يتحدثون باسم بلادهم ، وواحد منهم وهو محمد كريم أقامه الجنرال كليبر حاكماً للإسكندرية وأراد منه أن يخدم المحتل الغاصب على حساب بلاده وضميره ، فرفض فحكم عليه كليبر بالإعدام وأعدم في ٦ سبتمبر ١٧٩٨ م ، فكان أول شهيد مصرى في سبيل حرية وطنه منذ أيام الصليبيات ، وخلفه الشيخ المسيرى وكان ألين عريكة ، وأنشئ الديوان وكان رئيسه

نابليون ، ومثل الفرنسيين فيه العالمان مونج ، وبرتوليه ، وانتخب الأعضاء الشيخ الشرقاوى رئيساً فرقى أن يلبس الجوكار رمز الثورة الفرنسية وغضب ، وعين الجنرال ديجا ثم خلفه دوبوا حاكماً على القاهرة ، وأظهر الفرنسيون أقصى ما استطاعوا من نفاق في الأسابيع الأولى ليخدعوا المصريين عن حقيقة الاحتلال وبلغ الأمر أن أعلن نابليون أنه هو وجنوده قد اعتنقوا الإسلام ، ونابليون لبس العمامة والجببة والقفطان ولكن أحداً من المصريين لم يصدق ذلك .

\* \* \*

وهذا الحادث الفاصل - غزو الفرنسيين لمصر واحتلالهم إياها وقيامهم بحكمها - هو الذى عبر عنه مؤرخ العصر عبد الرحمن الجبرتي بالعبارات التالية الحافلة بالمعاني والتي استهل بها حوادث سنة ( ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ) في مطلع الجزء الثالث من تاريخه : وهى أولى سنَى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب ، ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ ، واستشهاد الجبرتي في آخر هذه العبارة بالآية القرآنية ( رقم ١١٧ من سورة هود ) يؤيد ما سبق أن قلناه أكثر من مرة في هذا البحث ، وهو أن الله لا يهلك الناس إذا كانوا مصلحين لأنفسهم ولأرض بعمارتها فقد رأينا مرة بعد أخرى كيف أن المسلمين انحرفوا عن المنهج الإلهى الذى رسمه لهم ليسعدوا في الدارين ، فحق عليهم العذاب لأنهم مفسدون ، أما نتيجة الظلم والانحراف في بلادنا فيصورها أحد ضباط الحملة الفرنسية بقوله : ماذا تجد عند دخولك القاهرة ؟ شوارع ضيقة قدرة غير مرصوفة ، وبيوتاً مظلمة متداعية ، وأبنية عامة تبدو وكأنها السجون ، وحوانيت أشبه بمرايط الخيل ، وجوّاً عبثاً برائحة التراب والقمامة ، وعمياناً وعوراً ، ورجالاً ملتحين وأشخاصاً يرتدون أسماً محشورين في الشوارع أو قاعدين يدخنون قصباتهم كالقدرة أمام مدخل كهفهم ، ونساء قليلات منكرات الصورة مقرزات يخفين وجوههن العجفاء وراء خرق ننتنة ويبيدين صدورهن المتهدلة من أرديتهن الممزقة ،

وأطفالاً صفر الوجوه رفاق الأجساد ينتشر الصديد على جلدهم وينهشهم الذباب ،  
ورائحة كريهة منبعثة من الأوساخ داخل البيوت ، ومن التراب في الهواء ومن قلى الطعام  
بزيت ردىء في الأسواق العديمة التهوية ، فإذا فرغت من التفرج على معالم المدينة عدت  
إلى منزلك فوجدته خلواً من كل أسباب الراحة ، وجدت الذباب والبعوض وضروباً لا  
تحصى من الحشرات في انتظارك لتتسلط عليك أثناء الليل فتنفق ساعات الراحة وأنت  
تسبح في عرقك وقد نال منك الإعياء ، تهرش وتنتشر البثور في جلدك وتنهض في الصباح  
وقد أخذ منك السقم كل مأخذ وعشى بصرك وجاشت نفسك وفسد طعم فمك وغطت  
جسدك الدمامل أو القروح على الأصح ، ويبدأ يوم جديد هو صورة الأمس ( نابليون في  
مصر الترجمة العربية ص ١٨٨ ) .

ولا يظن ظان أن في هذه العبارات مبالغة فهي حقيقية ، وهى صورة مجتمع أهلكه  
الظلم والجهل مدى اثنى عشر قرناً حتى بيوت الأغنياء فإن نابليون دهش عندما نزل في  
دار محمد الألفى بك في الأزبكية ليتخذها مقراً له ، وكان الألفى أغنى المماليك فلم يجد  
فيها نعمة ولا أشياء لها قيمة ، لا أوانى فاخرة ولا رياضاً غالية سوى بعض السجاجيد  
البالية وأرائك مغطاة بحريير هالك ، ومهما يكن الألفى قد هرب به فهذا الذى وجده  
نابليون ليس بيت سيد عظيم غنى ، وهذه أيضاً نتيجة للظلم ، فإن الظلم ينتهى بفقر  
الحاكم والمحكوم وتعاستهما معاً ، وأين والله ذهب ثروة مصر التى كانت مضرب المثل  
في العصور القديمة ؟ لقد جبى خراجها دون مشقة - عمرو بن العاص فكان اثنى عشر  
مليون دينار في العام ، فما زالت تتناقص حتى غرق البلد في الفقر والتعاسة . وقبل  
الغزو التركى لمصر زار مصر سائحاً سفير إيطالى أسباني يسمى ماريتردى انجلاريا ،  
فاندهش من فقر البلاد حتى أن قنصوة الغورى سلطان مصر كان يستقبل ضيوفه في  
رحبة قصره في القلعة جالساً على دكة من الخشب وعليه ملابس كثيرة باهتة الالوان ،  
وهذا هو سلطان المماليك ، ولكنه كان سلطاناً لصاً وليس هذا كلامى ، بل كلام ابن  
إياس ؛ لأن الغورى عندما أراد أن يبنى مسجده المعروف بمسجد الغورى لم يجد مالاً  
يبنى به ، فصار يأمر العمال بسرقة الأعمدة والأحجار من المساجد الأخرى ، فأطلق  
ظرفاء المصريين على جامع الغورى اسم المسجد الحرام لأنه بنى كله من الحرام .

\*\*\*

تلك هي بداية العصر الحديث أو عصر النهوض كما نسميه ، عرضتها عليك لكي تكون لديك فكرة عن المشوار الطويل الذى قطعناه في أقل من قرنين من الزمان ، وما قرنان في حساب عصورنا الوسطى ؟ ولو لم يدخل الفرنسيون مصر ويحطموا جدران السجن الرهيب الذى كنا نعيش فيه لكننا إلى يومنا هذا نعيش في حكم ممالك من أمثال مراد وإبراهيم والبرديسى والألفى ولكننا إلى يومنا هذا نرسف في أغلال الظلم التركى الذى عم كل أهل الدولة العثمانية وأولهم الأتراك ، فقد كانوا وهم السادة أتعس من الرعايا ؛ لأن العقلية التركىة بعد عصر سليمان القانونى دخلت في ركود رهيب ، وسليمان هذا الذى يلقبه الأوروبيون بالفخم هو الذى منح الأجانب الأوروبيين جميعاً تلك الامتيازات الغريبة التى جعلت الأجنبى يعيش في بلاد الدولة العثمانية السعيدة أسعد من أهل البلد ، ونحن المصريين لم نتخلص من ذلك الوضع المهين إلا سنة ١٩٢٨ في معاهدات مونترية بعد معاهدة ١٩٣٦ ، ولا عجب في هذه الحالة أن نسمع مثلاً يقول : إن الصياد العثماني إذا أراد أن يطارد أرنباً ركب عربة يجرها ثور ، وهذه هي طريقته في العمل والتصرف .

\*\*\*

وتاريخ الفكر العربى خلال عصر النهوض يبدأ من هذه الصورة المخيفة ، فبعد مظالم الأتراك والمماليك والاحتلال الفرنسى القصير المدى الذى تحول بعد هدنة قصيرة إلى استبداد غاشم نهاب وخاصة بعد ثورة القاهرة على الفرنسيين وقتلهم دوبوا حاكم القاهرة الفرنسى في أكتوبر ١٧٩٨ ، والفرنسيون مضوا على أى حال سنة ١٨٠١ بمقتضى معاهدة إميان مع الإنجليز الذين وضعوا أعينهم من ذلك الحين على مصر ، فرسموا سياساتهم على أساس الاستيلاء عليها وتحويلها إلى مستعمرة إنجليزية ومحطة في طريق مستعمراتهم في الهند وبقية آسيا وإفريقية ، وبعد خروج الفرنسيين عادت مصر إلى حكم الأتراك ، والشيخ عبد الرحمن الجبرتى وهو آخر أهل الفكر المصريين في العصور الوسطى وأولهم في العصر الحديث يضطر إلى النفاق خوفاً على حياته بعد خروج الفرنسيين شأن معظم رجال الفكر العربى في عصور الظلم فقد خشى مغبة بعض عبارات أوردها في تاريخه مدحاً في بعض مظاهر الحضارة الفرنسية

مثل الديوان ونظم المحاكمة وصدق المعاملات التجارية فألف كتاباً جديداً إلى جانب تاريخه كله نفاق وكذب وسماه « مظهر التقديس في خروج الفرنسيين » ، كال فيه الذم للفرنسيين والمديح للأتراك كيلاً منفراً وأعلن استبشاره بعودة الأتراك لحكم مصر إعلاناً كاذباً سمجاً ، ولكننا لا نقسو في الحكم على عبد الرحمن الجبرتي لهذا السبب فما كان الرجل إلا مفكراً مصرياً مستضعفاً لا يأمن سيف الجبار التركي ، ولكنه لم ينج من سيف جبار مصر الجديد محمد علي الذي أضمر له السوء لعبارات سمع أنه قالها في تاريخه في نقد نظامه فدبر اغتياله ، والمسكين سقط تحت سكاكين القتلة وهو عائد إلى بيته من شبرا في ليلة ظلماء هي ليلة ( ٢٧ رمضان ١٢٢٧ هـ / ٢٢ يونيو ١٨٢٢ م ) .

ومحمد علي ذلك الجندي الأرناءوطى الذكى المرتزق الذى دخل مصر فى جملة جنود الأتراك الذين عادوا إلى مصر استطاع استعمال المصريين الطيبين فى الانتقال من قائد فرقة من الجند الألبان الذين كانوا يبدون كالمتسولين إلى مرشح المصريين لولاية مصر على رغم السلطان ، ثم تولى أمور مصر بإرادة شعبها وزعامة شيخها عمر مكرم ، وما كاد يستقر فى الولاية سنة ١٨٠٥ حتى عاد القهقرى بالفكر السياسى ، واتجه إلى استجلاب جند مرتزق من السودانيين ليحكم بهم مصر حتى نبهه إلى خطئه الكولونيل سيف الفرنسى ، الذى قال له : إن خير ما يعتمد عليه هم رجال بلده وإنهم فى فرنسا ينشئون جيوشهم من فلاحى فرنسا الذين يأتون بهم من لافانديه وعسفوينيا ونورمانديا وغيرها ، ويدربونهم فيصبحون من أحسن الجنود ، وفعل محمد على ذلك ، وأنشأ الجيش المصرى الذى ثبت عرشه ، وقام بالفتوح العظيمة فى كل اتجاه ، والكولونيل سيف هذا الذى يعتبر بحق من منشئى جيش مصر أثبت أنه من أكثر الناس إخلاصاً لها فأسلم وتسمى بسليمان الفرنساوى ، وهذا الرجل العظيم عدا على ذكره حاكم جبار هو جمال عبد الناصر الذى أزال اسمه وتمثاله من أحد شوارع العاصمة وقد جرى فى ذلك على تقليد نكران الجميل والعدوان على المخلصين .

وهو تقليد دائم جرى عليه الطغاة المستبدون الذين أشرنا إليهم فيما سلف من هذا الكلام .

وقد جرينا على القول بأن محمد على هو منشئ مصر الحديثة ، وهذا حق وصدق ، ولكنه لم يكن رجلاً عظيماً لولا شعب مصر الموهوب الذى استجاب بطبعه الحضارى لنداء الحضارة ، وأكبر دليل على ذلك هو أن مصر هو البلد العربى الوحيد

الذى اتصل فيه تقليد أهل الفكر رغم سوء الأحوال وسلسلة المؤرخين العظام التى انتهت بابن إياس الحنفى واستمرت بعبد الرحمن الجبرتى الذى لم يكن مؤرخاً فحسب ، بل كان مفكراً متطلعاً إلى المعرفة بصورة تستوقف النظر ، فقد كان إذا علم أن الفرنسيين علقوا على الحوائط منشورًا خرج رغم حظر التجول لينقل نص المنشور وفى يده شمعة ، لأن الناس كانوا يمزقون المنشورات الفرنسية إذا طلع النهار ، وخلفه فى سلسلة تواريخ مصر على باشا مبارك ثم عبد الرحمن الرافعى . وهو صاحب آخر المدونات الكبرى فى تاريخ مصر .

وفى سنة ١٨٢٦ بدأ محمد على – بتوجيه من الفرنسيين – فى إنشاء المدارس النظامية بادئاً بمدرسة أركان الحرب فى أبى زعبل ، ولم يكن من طلابها مصرى واحد ، بل كانوا من أبناء الترك والمماليك الشركس الذين ورثهم محمد على من المماليك الذين قضى عليهم ، وكان فيهم أرمن ويونان وكل جنس إلا المصريين ! وعندما شرع فى إرسال البعثات فى نفس العام كان معظم المرسلين إلى فرنسا من غير المصريين ، والخوف من أهل البلد تقليد غبى سار عليه حكام المسلمين بكل احترام ، ولكن نصحاء محمد على من الفرنسيين نصحوه بأن يبعث معهم أئمة للصلاة حماية لهم من الانحراف ووقع الاختيار على ثلاثة أئمة كان منهم رفاعه الطهطاوى ( ١٨٠١ – ١٨٧٣ ) وقد عاد معظم المبعوثين إلى مصر وخدموا بصدق وإخلاص وصاروا مصريين مخلصين ، ولكن أنبغهم جميعاً كان الشاب الأزهرى الذى أرسلوه معهم إماماً ، فقد تفتح ذكاؤه وذهنه المصرى المتحضر فأتقن الفرنسية وتنبه إلى نواحي القوة فى حضارة الغرب ، وأصبح من أعلام الفكر ، بل أول المفكرين العرب المحدثين ، وهذا المصرى الأزهرى الذى ولد فى طهطا بمحافظة جرجا تعلم ووصل إلى العالمية الأزهرية ، ثم التحق بخدمة الجيش واعظاً وإماماً سنة ١٨٢٤ ، ثم أرسل إلى باريس إماماً للبعثة المصرية ، وأثبت أنه مفكر أصيل : أتقن الفرنسية ونبغ فى النقل منها إلى العربية ، وهو وتلاميذه نقلوا إلى العربية عشرات كتب العلم الأوروبية فى كل علم وفن ، وأنشأ مدرسة الألسن سنة ١٨٣٦ وبفضل رفاعه وتلاميذه أصبحت اللغة العربية لغة مصر الرسمية ، وحلت محل التركية ، وأنشئت مطبعة بولاق وأخذت تخرج للناس ذخائر العلم الحديث ، وبدأت حركة إحياء التراث أى نقل الماضى إلى الحاضر ونقل العلم الغربى أيضاً .

وكل هذا عظيم ، ولكن الذى يستوقف النظر هو رفاعه رافع الفكر ، فهذا الأزهرى

الناخب يؤلف كتاباً عظيماً يسمى « مباحج الالباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » يتحدث فيه عن الحضارة الغربية حديث الفاهم العارف ، فهو يمتدح الحرية والديمقراطية ويعجب بالبرلمان والصحافة ، وحريتها ، وتعجبه عناية الناس بشئون المدن والبلديات ، وتستوقف نظره نظافة المدن وجمال تنسيق شوارعها وأشجارها ورشها بالماء وهى أشياء نسيناها نحن فى مدننا اليوم ، وترتد بها اليوم إلى الوراء ، فتصبح قرى ضخمة أو تجمعات سكانية بلا نظام ولا هيئة ولا قانون بلديات ؛ لأن الذين يشرفون على شئون المدن عندنا اليوم يقفون عشرات السنين وراء رفاعة الطهطاوى ، وهذا الشيخ الأزهرى يمتدح التمثيل والمسارح والمسرحيات والأوبرات بينما شيوخننا اليوم لا يكادون يحفلون لذلك ، وجامعة الأزهر الجديدة التى استحدثوها أيام عبد الناصر ليس فيها إلا القليل جداً من الأساتذة من مستوى رفاعة ، لأن هذا الرجل قرأ كتب مفكرى عصر الأنوار ، وتحمس لمونتسكيو ، وقال إنه ابن خلدون الغرب ، ورفاعة رافع الطهطاوى ذلك النابغة الذى كتب هذه المعانى الجليلة عاد فأكدها فى كتاب آخر يعتبر وسام شرف على صدر الفكر المصرى هو « تخلص الإبريز فى تليخيص باريز » وهو بلا شك علامة واضحة جداً فى طريق نهوض الفكر العربى كله ، فهذا الأزهرى يرى أن أهل باريس أكثر حضارة من غيرهم ؛ لأنهم يعرفون معنى العلم والنظام والفن والجمال ، ويجعلون بلدهم عاصمة النور ، وهو لا ينكر سفور المرأة الفرنسية مع الحشمة والوقار والأدب واحترام الأسرة ، ويدعو إلى خروج المرأة إلى ميدان العمل ، ويرى أن ذلك يشعرها بكرامتها ويخرجها من ظلام حياة الحریم ومؤامراته ، بل هو يؤمن بالحرية والدستور ، ويقف بفكره مع الشعب الفرنسى الذى ثار على الملك شارل العاشر وأسقطه وأتى بملكية لوى فيليب الدستورية ، وتشاء مصادفة سعيدة أن يذهب إلى السودان بعد إغلاق سعيد بن محمد على للمدارس فى مصر ، ويعمل فى المدرسة الابتدائية التى أنشئت فى الخرطوم ، وهذه المصادفة رمز على وحدة وادى النيل ، ثم يعود إلى مصر سنة ١٨٥٤ ويوليه محمد سعيد وكالة مدرسة الجهادية ، وكان ناظرها ذلك الرجل العظيم سليمان الفرنساوى الكولونيل سيف ، وهكذا يلتقى هذان العلمان على بساط العلم وخدمة الوطن المصرى ، بل إن هذا الرجل ينشئ سنة ١٨٧٠ مجلة « روضة المدارس » أول صحيفة ثقافية فى مصر ، وفيها يكتب نفر من أعلام النهضة الفكرية : عبد الله فكرى باشا الشاعر والمسيو بروكش باشا ناظر

مدرسة اللغة المصرية القديمة وطلبة الأجيال وطلبة ومحمد على البقل باشا طلبة الأطباء في نهضة مصر الحديثة ، وهو من تلاميذ رفاة ، ومحمود باشا الفلكي من طلائع أهل العلوم في مصر ، وصالح مجدى الأديب الذى خلف لنا كتاباً جميلاً عن حياة أستاذه رفاة اسمه « حلية الزمن بمناقب خادم الوطن » ، وأحمد ندا عالم النبات ، وأبو السعود أفندى محرر جريدة « وادى النيل » والشيخ حمزة فتح الله واثن اللغويين والنحويين العرب في العصر الحديث ، والخلاصة أن رفاة رافع بنشاطه المتجدد وذكائه المتوقد وإيمانه العميق ببلاده والعروبة والإسلام كان مدرسة ورائد نهضة وباعث فكر ، وقبل رفاة لم يكن هناك فكر عربى حى ، وبعده تستطيع أن تتحدث بحق عن ذلك الفكر العربى الذى نهض به رفاة رافع الطهطاوى وزملاؤه وتلاميذه ، فأكمل بذلك ما كان يحلم به شيخه حسن العطار شيخ الأزهر في أيامه ، وهو كذلك كان شيخاً عالماً شاعراً مجدداً واسع الذهن ، وهو في تاريخ نهوض الأزهر شعاع الفجر الذى سيصبح على يد محمد عبده وجيله نوراً باهراً .

ويلى رفاة الطهطاوى في قيادة النهضة الفكرية في مصر على باشا مبارك ( ١٨٢٤ ١٨٩٢ م ) وهو مثله مصرى صميم من الريف ، مثله في ذلك مثل أحمد عرابى ومحمد عبده وسعد زغلول وغالبية من قام على أيديهم بناء مصر الحديثة ، فإن على مبارك من أبناء قرية برنبال الجديدة مركز دكرنس ( محافظة الدقهلية ) وهو من أسرة طيبة ، ولكنه لقى في حياته شقاء بالغاً يرجع معظمه إلى سوء أحوال مصر خلال ذلك العصر ، فهو عصر إسماعيل بما فيه من تطورات وأزمات وتغيرات وشدائد حاسمة ، وقد شق على مبارك طريقه بجهد بالغ وإصرار يدعو إلى الإعجاب ولكن سيرته تقص كذلك جانباً من شقاء الفلاحين المصريين أيام سعيد باشا وإسماعيل باشا وقد نجح في النهاية في دخول كُتَّاب قرية أبى العز ثم انتقل إلى المدرسة الابتدائية بقصر العينى ، ثم مدرسة أبى زعبل ثم مدرسة الهندسة ( المهندسخانة ) ثم أرسل في بعثة إلى فرنسا ليدرس الهندسة ( ١٨٤٤ ) ثم عاد إلى مصر مهندساً ، وتعرف بذلك الرجل العظيم سليمان باشا الفرنساوى القائد العام للجيش المصرى إذ ذاك ، ثم أصبح ناظرًا للمهندسخانة وأرسل للاشتراك في حرب القرم ثم عاد واشترك في مشروعات هندسية كبرى ، وعندما أنشئت الوزارة المصرية الأولى سنة ١٨٦٨ تولى وزارة الأشغال والمعارف ، وهو أول مصرى يصل إلى الوزارة من أيام الفراعنة ، وهنا في وزارة المعارف قام على مبارك بدور حاسم

في نهضة مصر العلمية فهو الذى وضع لائحة قانون التعليم وأنشأ المدارس الابتدائية مايو ١٨٦٨ وأنشأ مدرسة دار العلوم ١٨٧٢ ، ودار الكتب ١٨٧٠ ، ومجلة « روضة المدارس » وألف كتاب « الخطط التوفيقية » على غرار « خطط المقرضى » وهو كتاب جليل في عشرين مجلداً ، وإذا كان دور على مبارك في النهضة العلمية عظيماً فإن دوره في الكفاح الوطنى كان قليلاً لأن على مبارك كان من رجال السلطان يؤثر الطاعة للحاكم ولهذا كان موقفه من الحركة العرابية غير مشكور ولكنه على أى حال قام بدور عظيم في الحركة العلمية والفكرية ، وعندما توفى في ( ١٤ نوفمبر ١٨٩٢ م ) انتهى دور رجال الدولة في النهضة الفكرية وانتقلت قيادتها إلى الشعب فقد كانت الثورة العرابية قد قامت ونامت ودخلت البلاد تحت الاحتلال الإنجليزى وانتقل النشاط كله إلى رجال الشعب الذين كانوا يكافحون الاستعمار ، وكانت المدارس بكل أنواعها قد كثرت وتحطمت جدران عصور الظلام ودخلنا في عصور الكفاح للحرية .

\* \* \*

خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ساءت الأمور في مصر نتيجة لسوء سياسة ولاة مصر بعد محمد على وتزايد أطماع دول الغرب في ذلك البلد الذى كان حاكمه من أسرة محمد على على رأس المتآمرين عليه ، وتبين للمصريين أن لا سبيل لهم إلى الخلاص إلا بالاعتماد على أنفسهم ومن هنا كانت الثورة العرابية التى اشتركت أوروبا كلها مع تركيا والخيديوى توفيق في إجهاضها ، وانتهى الأمر بالاحتلال البريطانى لمصر في سبتمبر ١٨٨٢ .

هنا تدخل الوطنية المصرية في صراع الاستقلال الذى بلغ ذروته مع ثورة ١٩١٩ التى بدأت في تاريخ مصر والشرق عصرًا جديدًا ، الثورة لم تكن مجرد ثورة سياسية عسكرية بل كانت بداية نهضة شعب سبقتها مهادت سياسية وثقافية طويلة المدى ألمنا ببعض أطرافها فيما قلنا عن رفاة الطهطاوى وعلى مبارك .

\* \* \*



## النُهُوضُ وَمَعْنَاهُ

لا يستطيع أى إنسان مفرد - مهما بلغت ملكاته وقدراته - أن يصنع شيئاً كثيراً ، والأعمال والحركات الكبيرة كلها جماعية ، فالنهضة لم تكن من صنع رجل واحد ، والذين يقولون : إن أرازموس هو باعثها مخطئون ؛ لأنه واحد من جماعة ، والأفكار العظيمة التى تحدث حركات كبرى تولد فى الغالب فى أذهان جيل أو أجيال من الرجال ، والجيل كله بل الأجيال المتوالية تصنع التغيير العظيم الحاسم ، وأرازموس Desiderius Erasmus Raterdem Us ( ١٤٦٩ - ١٥٣٦ م ) لم يكن إلا صاحب الدعوة الأولى .

وهذه الدعوة كانت فى قلوب الكثيرين ، فلم يكد أرازموس يفتح فمه داعياً إلى التخلص من قيود الفكر التى فرضتها الكنيسة على أهل الغرب حتى تجاوزت الأصداء بل قام اثنان من الباباوات بتبنى الدعوة هما : يوليوس الثانى وليو العاشر ، وتدفق السيل فكتب أريوسطو وميكيا فىللى ودى بيميو وكاركواتوتاسو ، وظهر كبار الرسامين والنحاتين يحاكون أعمال الإغريق والرومان : دوناتيللو وفرا انجيلو ورافايلى وميكل أنجلو ، ثم يظهر فى فرنسا رايليه وروفسار ودويابى وجماعة المجرة ( لابلبياد Le Pleiade ) ، ويظهر من بين هؤلاء ميكل انجلو رساماً ومثالاً يفوق كل ما عمل اليونان والرومان ثم يكون ليوناردو دافنشى العجيب ، فهو رسام ومثال ومخترع ورياضى وصاحب خيال علمى بعيد يصل به إلى تصميم الطائرات ، وجاليليو جاليلى المفكر الكاتب المجدد ، ويخرج الفكر الأوروبى من ظلمات العصور الوسطى ويزتد إلى علوم الإغريق والرومان باحثاً عن الطريق ويجد طريقه فى النهاية ويكون النهوض الشامل .

وكذلك كانت حركة تجديد الفكر الغربى المعروفة بعصر الأنوار فى الفرنسية وعصر الاستنارة أو التنور فى الإنجليزية The Age Of Enlghtemment ابتداء من القرن السابع عشر ، وكانت عمل سلسلة ضخمة من الرجال أظهرهم مونتيسكو وفولتير ، وجان جاك روسو ، وسان سيمون ، وبيكون ، وهيوم ، وهوبز ، وبدون هذا العمل الجماعى ويتعاون فيه الرجال من أبناء الجيل الواحد والأجيال المتعاقبة لا تكون حركة فكرية واجتماعية أو سياسية ، وتلك ناحية من أكبر نواحي الضعف فى تاريخنا الفكرى والاجتماعى والسياسى ، فإن الفردية هى السمة الغالبة والعمل الجماعى منعدم ،

ولهذا فقد لاحظت معى فيما حكينا من تاريخ الفكر العربى أنه كله أعمال فردية لا حركات متصلة ، وهذا من أكبر أسباب الركود والتدهور مع أن روح الإسلام تؤيد الجماعة للفرد ، والله سبحانه عندما يخاطب الناس داعياً لهم إلى الإيمان والخير والعبادة والصالح يخاطبهم جماعة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ ( النساء ٤ / ١٣٥ ) فإذا أراد أن يلفت الإنسان إلى نقائصه أو يلومه خاطبه مفرداً : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ \* الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ ( الانفطار ٨٢ / ٧ ) و ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ \* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ( التين ٩٥ / ٤ ، ٥ ) و ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَخَلْقُومٌ كَفَّارٌ ﴾ ( إبراهيم ١٤ / ٤ ) وغير ذلك كثير جداً .

والذين يؤرخون لنهضة الفكر العربى على أنها من صنع الإمام محمد عبده أو من صنعه مع جمال الدين الأفغانى مخطئون ، فما كان هذان الرجلان — مهما بلغت ملكاتهما — ليستطيعا شيئاً كثيراً فإذا كانا قد صنعا فلا بد أنه كانت معهما وقبلهما وبعدهما جماعات على مستواهما عملت وتجاوبت وتعاونت فكانت النهضة الفكرية والسياسية والاجتماعية ، فمحمد عبده سبقه وشارك في تكوينه الشيخ درويش والشيخ محمد ظافر الطرابلسى ، وهما أول من فتح ذهنه على نور العلم ، والشيخ حسن العطار عالم الأزهر الجليل وشيخه ( ١٧٧٦ - ١٨٣٥ م ) وهو الذى اختار رفاعة رافع الطهطاوى ( ١٨٠١ - ١٨٧٣ م ) ليكون أحد أئمة البعثة المصرية إلى باريس ، وهو الذى أوصاه بدراسة الفرنسية وعلوم الغرب ، وكان كذلك شيخ محمد عبده فقد كان رئيساً لتحرير الوقائع المصرية ثم خلفه في ذلك محمد عبده ثم تولى مشيخة الأزهر وهو رائد من رواد النهضة الفكرية العربية ، لم يأخذ حقه من العناية والدراسة بل كان الشيخ محمد المهدي شيخ الأزهر سنة ١٧٩٨ م ، صاحب الفضل الأكبر في حصول الشيخ محمد عبده على العالمية وكادت لجنة الامتحان ترفضه بسبب علاقته بالشيخ جمال الدين الأفغانى وبسبب مقالاته الحرة في الوقائع المصرية ؛ وهنا حسم الشيخ المهدي القضية وكان رئيس مجلس الامتحان فقال : لو كنت أعرف درجة فوق العالمية من الدرجة الأولى لمنحتها له ... وانتهى الأمر بنجاح محمد عبده بالعالمية من الدرجة

الثانية . أقول ذلك للذين يصرون على الحصول على الدكتوراه بدرجة الامتياز ثم يكونون بعد ذلك كالبالون المنتفخ تمسه بدبوس فيصبح لا شيء ..

كان هناك جيل إذن من أهل الفكر المتيقظين وهو الذى استقبل آراء محمد عبده والأفغانى وسار بها إلى الامام وجعلها حركة نهوض فكرى اجتماعى سياسى عام لمصر والعالم العربى كله .

وتظهر روح الجماعة هذه فى إنشاء مجلة « العروة الوثقى » فى باريس ، كان جمال الدين الأفغانى عندما نفى إلى باريس قد استدعى محمد عبده من بيروت فى ( ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ م ) ليؤلفا جمعية العروة الوثقى من أعضاء من شتى أرجاء الوطن الإسلامى وليصدرها صحيفة باسمها ( عبد الحليم الجندى : محمد عبده ٣٩ ) ، وصدر العدد الأول منها فى ( ١٢ مارس ١٨٨٤ م ) ولقيت رواجًا واسعًا ، ولو لم يكن هناك جمهور يقبل عليها لما كان لها من رواج .

وإذا أردنا أن نلقى جماعة الرواد الذين صنعوا حقًا النهضة الفكرية العربية ونتبين روح الجماعة فى ذلك العمل ، فإننا نلقاهم بعد العروة الوثقى فى الجمعية الخيرية الإسلامية ثم فى صالون الأميرة نازلى فاضل .

ونحن لا نعرف الجمعية الخيرية الإسلامية إلا على أنها هيئة وطنية أنشئت لإقامة مدارس مصرية عربية إسلامية ، تقدم للطلاب المصريين ما كانت تحرمهم منه مدارس الحكومة التى كان يشرف عليها الإنجليز ويحرصون على ألا يتخرج فيها إلا كتاب فى الدواوين ، ولكن الحقيقة أن الجمعية كانت تجمعًا فكريًا عظيمًا ؛ فقد دعا إلى إنشائها محمد عبده فى « العروة الوثقى » فى باريس فلما أتحت له فرصة العودة إلى مصر أنشأها مع فريق كبير من دعاة النهضة الفكرية السياسية الاجتماعية وكان الشيخ محمد عبده أول رئيس لها سنة ١٩٠٠ م ، وقد استجابت الأمة لدعوتها فتبرع القادرون من أهل مصر بالمال الكثير بل اشترك فى العمل والتبرع نفر من أفراد الأسرة الحاكمة منهم الأمير حسين كامل بن الخديوى إسماعيل فقد رأس إدارتها بعد وفاة الإمام سنة ١٩٠٥ إلى جانب رياسته لمجلس شورى القوانين سنة ١٩٠٩ م ، وظل فيها حتى تولى العرش خلفًا لعباس حلمى سنة ١٩١٤ م ، وكان يقول عن الإمام : ( أستاذى الذى شرف علينا روحه الآن ، ولولاه لم أكن أنا مسلمًا ) .

وظل يرعى الجمعية طوال حياته وقد أنشأت الجمعية مدارس كثيرة ابتدائية وثانوية ومنها مدرسة بنات ، ولكن الذى يهنا هنا هو أن مجلس إدارة الجمعية كان يضم نخبة رواد الحركة الفكرية ومنهم سعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، وقاسم أمين وحسن عاصم وكان شخصية جليلة مثقفة عظيمة الأثر في تاريخ النهوض الفكرى ، وقد كان مشرفاً على التعليم في الجمعية وعين في نفس الوقت رئيساً لديوان الخديوى حتى سنة ١٩٠٤ م ، وكان رجلاً مستقيماً كالسيف مؤمناً ثابت الإيمان بكل ما يعمل ، وهو الذى أشرف على برنامج التعليم العربى الإسلامى الصحيح في الجمعية ، وخلفه في هذه الوظيفة بعد وفاته عبد الخالق ثروت باشا وظل يشغلها بعد أن صار رئيساً للوزارة ثم خلفه الأستاذ محمد خلاف الذى كان من أقطاب منشئى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وفي هذه الجمعية تلقى على فخرى وكان مستشاراً بالمحكمة المختلطة وعلامة ومفكراً جليلاً ، وكان من أكبر أنصار مصطفى كامل الذى قال في تأبينه : إن الفقيه كان مؤهلاً بفطرته وعلومه وأخلاقه وآرائه وهمته واقتداره لأن يكون من أكبر قادة الأمم وباعثى روح الحياة والنهوض فيها . (عبد الحليم الجندى : محمد عبده ٦٦) .

وفي الجمعية الخيرية الإسلامية كذلك تلقى محمد فريد وقاسم أمين ولطيف سليم وغيرهم كثيرون ، وكانت الجمعية تجتمع في مبنى قبة الغورى ثم انتقلت في سنة ١٩١٤ م إلى سراى وسط أرض مساحتها ١٦٩٤٩ متراً مربعاً في درب الجماميز أوقفتها عليها السيدة خديجة برهان ، وحضر حفل افتتاح المقر الجديد السلطان حسين كامل .

وتستوقف نظرنا الجدية التى كانت الجمعية تدير بها أعمالها ، فهى تعمل بجد في تكوين شباب مثقف وطنى عربى اللسان يعرف كيف يخدم نفسه ووطنه ، وإقبال الأغنياء والأوساط على التبرع لها بالأموال والعقارات دليل على أنها كانت حركة قومية ، وقد كان الإنجليز في ذلك الحين يعملون جاهدين في إيذاء مصر وتمكين الاستعمار منها .

ومن أسوأ ما فعلوه في ذلك هو أن إلدون جورست وهو المندوب السامى الذى خلف كرومر اجتهد في الإيقاع بين الأقباط والمسلمين ، فأوعز إلى بعض السفهاء بمهاجمة الأقباط وأوعز إلى بعض الأقباط بإقامة المؤتمر القبطى في مارس سنة ١٩١١ م ، وبدت

في البلاد طلائع انقسام طائفي تطرف فيه بعض الناس مثل الشيخ عبد العزيز جاويش وهو ليس مصرياً ، واندفع فيه بعض الأقباط مثل توفيق دوس ، ولكن محمد عبده وإخوانه جميعاً تصدوا لإيقاف هذا التفريق الخطر وأظهر زعماء الأقباط من الوطنية والتعقل ما قضى على تلك الفتنة ، وهذا برهان قاطع على ما يتمتع به أقباط مصر من الوطنية والحكمة وبُعد النظر ، وفي مؤتمر المصالحة الذي عقد في هليوبوليس نشهد مشهداً مجيداً من مشاهد وحدة مصر ووطنية أهلها وسنرى أكبر مظهر لذلك عندما تقوم ثورة ١٩١٩ م ، وينضم إليها إلى جانب سعد زغلول نفر من خيرة أبناء مصر من الأقباط من أمثال : مكرم عبيد ، وواصف غالى ، وسينوت حنا ، وفخرى عبد النور ، وجورج خياط ، وغيرهم ممن يرتفع بهم رأس مصر ، وفصلتُ الكلام في ذلك في كتاب سابق لى هو « دراسات في ثورة سنة ١٩١٩ » .

والمظهر الثانى الذى تتجلى فيه روح جيل النهضة هذا هو صالون الأميرة نازلى فاضل وهى أميرة من فرع الأمير مصطفى فاضل الذى أقصاه إسماعيل عن الحكم بالفرمان الذى حصل عليه بحصر الوراثة في أبنائه ، مثله في ذلك مثل فرع حليم ، ومصطفى فاضل خاف على نفسه فرحل إلى الأستانة ثم إلى باريس حيث أصبح يحتل جناحاً من أجنحة أمراء الأتراك المناوئين للسلطان ونشأت بناته نشأة تحرير ، وواحدة منهن هى نازلى أنشأت في قصرها منتدى أو صالوناً أدبياً كان يجمع معظم أقطاب الفكر في مصر من أمثال : سعد زغلول ، وقاسم أمين ، وإبراهيم الهلباوى ، وأحمد فتحى زغلول ، وأحمد حشمت ، وحسن عبد الرازق ، ولطفى السيد ، وحفنى ناصف ، ومحمد طلعت حرب وغيرهم كثيرون ، وكانت الأميرة نازلى قد تزوجت خليل شريف باشا سفير تركيا في باريس ثم طلقت منه وتزوجت رجلاً من سراوات تونس يسمى خليل بوحاجب الذى تولى فيما بعد رئاسة وزراء تونس ، وعليه نزل محمد عبده في زيارته القصيرة لتونس سنة ١٩٠٣ م ، أيام كان منفياً في باريس ، وقصر الأمير فاضل هو نواة مبنى دار الكتب المصرية في باب الخلق التى أصبحت اليوم متحفاً للفن الإسلامى ودار الكتب نفسها من آثار محمد عبده ذلك الرجل الفريد الذى خلف لنا تراثاً فكرياً باهراً وكان على يديه إصلاح الأزهر وإخراجه من ظلمات الركود والتدهور ، وبفضله صدر أول قانون لإصلاح الأزهر سنة ١٨٩٦ .

إذن فقد كانت النهضة الفكرية في مصر ثمرة عمل جماعى مشترك وحماسة قومية

عربية عامة ، وهذا هو السدى أعطاهها تلك القوة العظيمة التى طفرت بها ، ويضاف إلى ذلك ميلاد المطابع فى مصر ، وأول مطبعة عرفتها مصر كانت تلك التى أتى بها نابليون معه إلى مصر سنة ١٧٩٨ م ، ولكن هذه عادت مع الفرنسيين إلى فرنسا سنة ١٨٠١ م ، ولكن الحادث الحاسم فى تاريخ الطباعة العربية كان إنشاء مطبعة بولاق أيام محمد على سنة ١٨٠٩ م ، ولها تاريخ طويل جميل وفيها طبعت إلى جانب مطبوعات الحكومة أولى نخائر التراث العربى ثم توالى المطابع إلى مصر وكثر تداول الكتب ما بين مؤلفة ومترجمة أو قديمة محققة ثم جاءت الصحافة ، وسلاح الثقافة الأسمى فى عصرنا والبداية عند الحملة الفرنسية بجريدتى « لا يكاد اجبيسيان » وهى مجلة علمية ثقافية كان ينشرها المجمع الفرنسى ، والثانية يومية هى « لوكوربيه ديجيبيت » وكلتاها بالفرنسية طبعاً ، لكن التاريخ الفاصل فى قصة الصحافة العربية كان سنة ١٨٢٨ م ، عندما أنشأ محمد على « الوقائع المصرية » التى حكى الدكتور إبراهيم عبده تاريخها وأعمالها فى كتابه القيم عن تطور الصحافة المصرية ، وفى ص ٢٣٥ وما يليها من ذلك الكتاب القيم ثبت بالصحف التى ظهرت فى مصر بعد المطبعة الأميرية ؛ فنجد فيها صحفاً ومجلات كان لها أبعد الأثر فى تطور الفكر العربى مثل وادى النيل (١٨٦٦م) ، ونزهة الأفكار (١٨٦٩) ، وروضة المدارس (١٨٧٠) ، والأهرام (١٨٧٥) ، والمحروسة (١٨٨٠) ، والأهالى (١٨٩٤) ، وأبو نظارة معظمة (١٨٩٧) ، والمنار (١٨٩٨) ، واللواء (١٩٠٠) ، والأمنة (١٩٠٥) ، والجريدة (١٩٠٧) ، والكشكول (١٩١٤) ، واللطائف المصورة (١٩١٥) ، إلى آخر تلك القائمة التى جعلت الصحافة جزءاً من حياة الناس وفكرهم فى العالم العربى .

فى هذه الصحف ظهرت المقالات ونشأ النثر العربى الجديد الحر ، وفى مجلة مثل « البيان » التى أنشأها عبد الرحمن البرقوقى سمع الناس أصوات عباس محمود العقاد ومصطفى لطفى المنفلوطى ومصطفى صادق الرافعى ، وفى جريدة « السياسة » ثم « السياسة الأسبوعية » عرف الناس محمد حسين هيكل وطه حسين ولطفى السيد ، وفيها وفى غيرها ظهرت أسماء: إبراهيم عبد القادر المازنى وسلامة موسى ومحمد عبد القادر حمزة وأحمد حافظ عوض وقرأوا أشعار أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وولى الدين يكن وخليل مطران وغيرهم كثيرون جداً ، وهكذا تجدد الفكر المصرى العربى وخرج من الظلمات إلى النور .

قصة الفكر العربي الحديث طويلة يعرف معظم قرائي منها أكثر مما أعرف ، وسأحاول قدر المستطاع في الصفحات التالية أن أعين المراحل الفاصلة في تاريخ ذلك التطور العظيم ، ولكني قبل أن أخطو هنا خطوة لا بد أن أنبه إلى أن الفرق عظيم بين النهضة العربية في مصر والنهضة الفكرية في لبنان ؛ لأن إخواننا اللبنانيين وطائفة معينة منهم بالذات تصر على أن تنسب لنفسها فضل النهوض الفكرى العربى كله فالأمير فخر الدين المعنى ( ١٥٧٢ - ١٦٣٥ م ) عندهم صنو محمد على مع أن فخر الدين كان زعيماً دينياً ذهب إلى الغرب ليستعين به على الدولة العثمانية ، والباباوات واليسوعيون ( الجزويت ) استجابوا له وأرسلوا البعثات وفتحوا أبواب معاهدهم للمسيحيين وذلك كله صحيح .

ولكنه لم يكن حركة نهوض فكرى عربى ونحن نعرف مكانة رجال من أمثال القس جبرائيل الصهيونى الأهدانى ( ١٥٧٧ - ١٦٤٨ م ) الذى ترجم إلى اللاتينية مختصر جغرافية الإدريسي ، والمطران جرماطوس فرحات ( ١٦٧٠ - ١٧٢٢ م ) ، ويوسف سمعان السمعانى ( ١٦٨٧ - ١٧٦٨ م ) وأنا شخصياً مدين بالكثير لأعمال واحد من هؤلاء وهو الخورى ميخائيل الغزيرى ( ت ١٧٩٤ م ) أول من قام بفهرسة مخطوطات الاسكوريال في إسبانيا وما أكثر الساعات التى قضيتها مع كتابه الفريد « المكتبة العربية الاسكريالية » .

ولكن هذه كلها كانت في الحقيقة خدمات للعرب في المقام الأول ، أما النهضة الفكرية في بلاد الشام ومنه لبنان فترجع حقاً إلى ما بين سنتى ( ١٨٣٠ - ١٨٤٠ م ) وهى سنوات الحكم المصرى للشام أيام محمد على وابنه إبراهيم ؛ لأن بعثات البابوية والجهات الأوروبية كان جهدها مقصوراً على المسيحيين وحدهم ، فلما جاء الحكم المصرى ومعه التحرر الكامل من الأتراك العثمانيين فقد تفتحت أبواب العلم والنهوض لكل أهل الشام من غير تفرقة دينية وأنشئت المدارس والجمعيات العلمية الإسلامية إلى جانب المسيحية ، وهنا يمكن التحدث بحق عن نهضة فكرية في بلاد الشام ، والشيخ ناصيف اليازجى ( ١٨٠٠ - ١٨٧١ م ) ، معاصر رفاعة رافع هو أول عظماء المفكرين العرب من أهل الشام ويعاصر ناصيف الشيخ إبراهيم اليازجى وأحمد فارس الشدياق تحفة الفكر العربى المجدد الجرىء في القرن الماضى وسليمان البستاني وبطرس

البستاني خاصة الذي قام بأضخم عمل تجديدي طليعى فى القرن الماضى بترجمته  
إلى أذى هومىروس ، وهنا مكان فضيحة لإخواننا فى لبنان وهى أن هذه النزعة التى  
وضعها الفرنسيون والأمريكيون فى أذهان طائفة معينة من أهل لبنان خلاصتها أنهم  
أفضل أهل لبنان وأولى الناس بحكمه وإدارته ، هذه النزعة أساس نكبة لبنان التى  
يعيش مأساتها اليوم ، والأب هنرى لانانس اليسوعى الذى كان يتلذذ بمهاجمة  
الإسلام والمسلمين ومعاصره الأمريكى دانيليل يليس الذى أنشأ المدرسة الأمريكية التى  
تطورت إلى الجامعة الأمريكية لم يكن يخطر ببالهما أن يخدموا لبنان بل فرنسا  
والولايات المتحدة وإلى أن تدرك هذه الطائفة حقيقة أمرها وهى أنها جماعة من مواطنى  
لبنان مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من أهل لبنان وأن ولاءهم الحقيقى ينبغى أن يكون  
للبنان والعروبة فى جملتها وأن الولاء لباريس أو روما أو واشنطن لن تنشأ عنه إلا  
الكوارث إلى أن يتبينوا ذلك ويؤمنوا به ويتعرفوا على مقتضاه ؛ فلا أمان ولا سلام لهم  
فى لبنان وبلاد الشام كلها ، ولا أمان للبنان معهم ، نصيحة أسوقها فى الطريق إلى طائفة  
لها فى نفوسنا أعمق المكانات ولكن الغرب الأناى مضلل وخطر ولا ضير عليه فى خدمة  
بلادها فالحياة معركة ولكن الضير كل الضير فى أن يضعف ولاء عربى لوطنه ولغته  
ويحسب أن الأجانب سوف يخدمونه أو يطورون وطنه على حساب أوطانهم وهذا وهم  
وضلال ، والدليل على ذلك أن أهل الفكر فى لبنان الذين تجردوا من هذه النزعة من أمثال  
ميخائيل نعيمة ، وجبران خليل جبران وأدباء المهجر أصبحوا عندنا من صناع الفكر  
العربى الحديث وأعلامه .

\* \* \*

هذه التجمعات الفكرية التى أشرنا إليها فى مجالس الشيخ جمال الدين الأفغانى  
ومجالس الشيخ محمد عبده والعروة الوثقى والجمعية الخيرية الإسلامية وصالون  
الأميرة نازلى فاضل ، ولنصف هنا جمعية الاقتصاد والتشريع ونادى القضاة ودور  
صحف أواخر القرن الماضى وخاصة المؤيد ( وصاحبها على يوسف ) واللواء ( جريدة  
الحزب الوطنى ) وبقايا مجلس شورى القوانين ، كل هذه كانت الأوساط التى نشأت  
وتطورت فيها فكرة ثورة ١٩١٩ م ، حقاً إن تلك الثورة قامت على نحو يبدو كأنه

مفاجأة عقب زهاب سعد زغلول وعلى شعراوي وعبد العزيز فهمى إلى دار المعتمد البريطاني ومطالبته بجلاء بريطانيا عن مصر ( ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ) ولكنها لم تنشأ من فراغ ، الحكومة البريطانية رفضت الإذن لسعد وأصحابه في السفر إلى أوروبا لعرض قضية مصر على مؤتمرات الصلح في فرساي ، ثم رفضت كذلك الإذن لحسين رشدي رئيس الوزراء في السفر مع عدلى باشا لنفس المهمة واستقال حسين رشدي في ( ٣ ديسمبر ١٩١٨ ) ، ثم رحل السيد ريجينالد وينجت عن مصر ( ٢١ يناير ١٩١٩ ) ، وبرحيله أصبحت مصائر مصر بيد قائد القوات البريطانية في مصر الميجور جنرال واطسن ثم ألقى سعد زغلول خطابه في جمعية الاقتصاد والتشريع ( ٧ فبراير ١٩١٩ ) وفيها أعلن بصراحة بطلان الحماية البريطانية عن مصر وطالب بإلغائها وهذا هو الميلاد الفعلي للثورة ، ثم نشأ الوفد وجمعية التوكيلات ووجهت الزعامة الشعبية خطاباً إلى السلطان أحمد فؤاد ليقف إلى جانب الشعب في المطالبة بالاستقلال ، وأندرت السلطة العسكرية الوفد وأمرت رجاله بالانصراف عن مطلبهم وهددتهم بالعقاب ثم اعتقلت سعد زغلول وثلاثة من صحبه ( حمد الباسل ، وإسماعيل صدقي ، ومحمد محمود في ٨ مارس ١٩١٩ ) ، ثم قبضت عليهم وسجنتهم ثم نفتهم عن مصر ، كل ذلك أدى إلى انفجار الثورة في ( ٩ مارس ١٩١٩ ) كل هذه الحوادث المتلاحقة - وقد حرصت على ذكر تواريخها لتتضح للقارئ سرعة تلاحقها - ما كانت هذه الحوادث تتم على هذه السرعة إلا إذا كان هناك تمهيد فكري لها قامت به جماعة من أهل الفكر قادرين على تأييدها ودفعها إلى الأمام ، ولهذا بدأت هذا الفصل بالكلام على هذا التمهيد وكيف تكونت مجموعة الرجال الذين سيجملون عبء الثورة والسير بها ، وفي تطور أحداث الثورة بعد ذلك نلاحظ أن الأمر لم يقتصر على رؤوس الثورة وقادتها بل إن التمهيد الفكري الطويل الذي سبقها ودعوات جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وزملائهم في تحرير الوقائع المصرية ومقالاتهم في تلك الجريدة الرسمية ، كل ذلك كان قد مهد الجو في البلاد لتلقى الدعوة وتحويلها إلى ثورة شعبية ؛ لأن دعوات رجال الفكر وأفكارهم ومقالاتهم وخطبهم أو كتبهم لا يمكن أن تحرك الحوادث ؛ لأن الحوادث تحركها الجماهير التي تثور وتحطم وتهدم وتهدد النظام القائم وترغمه على رد الفعل - سلباً أو إيجاباً - فتتحرك العجلات ويكون الاندفاع الشعبى الذى يحدث التغيير .

ولا يمكن تصور اندلاع ثورة بصورة شاملة لكل طبقات الشعب إلا إذا كانت

العقول والعواطف مهيأة للاستقبال والعمل ، ومن هنا لا نتعجب من أن طلائع الجماهير الثائرة كانت من طلبة المدارس العالية وطبقات موظفي الحكومة وطلبة الأزهر وزعامات الأقباط ثم عمال السكك الحديدية ومن إليهم ، ثم بقية جماهير الشعب المستجيب الغاضب التي اندفعت إلى الشوارع تحركها أيديولوجية الحرية والخلاص من المستعمر والأمل في إنشاء الوطن المصرى المستقل ، وهذه الجماهير ستصبح من الآن فصاعداً القوة الدافعة للثورة العاملة على إحداث التغيير وشيئاً فشيئاً ستصبح هى البطل الحقيقى للحركة كلها وستسير وراء الرجل الذى فهمها وعرف كيف يتجاوب معها وهو سعد زغلول ، وستُخْرِجُ الثورة من الميدان أولئك الذين لم يفهموها أو يعرفوا كيف يتجاوبون معها .

وما كان عبد العزيز فهمى ، وعدلى يكن ، وعبد الخالق ثروت ، وإسماعيل صدقى ، ومحمد محمود بأقل إيماناً بحق مصر فى الاستقلال من سعد زغلول ولكنهم عجزوا عن فهم الشعب والاتصال به فتركهم الشعب جانباً ومضى فى طريقه واضطروا إلى البحث عن تأييد لهم من جهات أخرى حتى لا يضيعوا تماماً فانضموا شيئاً فشيئاً إلى السراى وتكونت منهم حكومات القصر والإنجليز التى كانت تعتبر نفسها حكومات العقل والرزانة والطبقات الرشيدة وأصحاب المصالح الحقيقية وما إلى ذلك من الشعارات التى نادوا بها ، أما سعد والوفد وجماهير الشعب التى أيدتهم ، فهذه فى نظر جماعات القصر هى الديماجوجية والسوقية ، والذى غاب عنهم أن هذه الديماجوجية كانت هى المطلوبة ! فقد طالما ترفع أهل الفكر على السوق أى أهل الأسواق والرعاى والعوام كما بينا مرة وأخرى على طول هذا البحث ، فقد انتهى عصر طبقات أهل الحكم من الخلفاء أو السلاطين ووزرائهم وحواشيهم ومماليكهم ( الذين أصبحوا ملوكاً ! ) وبدأ عصر الشعب أى جماهير الناس .

\* \* \*

## نَحْوَ أَدَبٍ عَرَبِيٍّ جَدِيدٍ

في الإنجليزية مَثَلٌ يقول Who Pays The Fidelel Aske For The Tunes ( من يدفع لعازف الكمان أجره هو الذى يطلب الألبان ) ، والذى كان يدفع إلى ذلك الحين كان أهل الجاه والسلطان والمال ، فكانت الألبان على هواهم : مديح وكذب ونفاق وذل أهل الفكر على عتبات الأقوياء وإهمال الجماهير أو « الرعاى » ، واعتبارهم إما بهائم وإما كالبهائم وإما غير موجودين أصلاً ، وقد ضربنا أمثلة كثيرة جدًّا على ذلك .

\* \* \*

أما الآن فقد انتهى عصر السيد الذى يدفع وحلَّتْ محله جماهير الشعب وهى لا تدفع إلا لمن تحس أنه ينفعها ، إنما هى تقرأ وتفهم وترضى أو لا ترضى وتقبل على المفكر الذى تحس فيه الأصالة والإخلاص والصدق وتشتري كتبه أو تقرأ الصحف التى يكتب فيها وترفض الزيف والقشور ، وهذه هى طريقة الدفع الجديدة وتلك عملتها وموازينها فى التقدير .

لهذا انصرف الناس عن مؤلفات « صهاريج اللؤلؤ » وظهر الفكر الأصيل الذى يعبر عن أفكار وعواطف ومعان إنسانية ولا عجب والحالة هذه أن نرى الثورة التى قاد صفوفها سعد زغلول فجرت فى نفس الوقت ينابيع الإلهام الفكرى والفنى فظهر العباقرة من كل نوع ومكان ، ظهر الجيل الذى نسّميه جيل العمالقة : العقاد ، وطه حسين ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وعبد الرحمن شكرى ، وسلامة موسى ، وأحمد حسن الزيات ، ومصطفى صادق الرافعى ومن إليهم ، حتى حافظ إبراهيم وكان قبل الثورة مداحًا يدور بشعره على أهل المال والجاه حتى قال شعرًا فى مدح اللورد كرومر تحول إلى الشعب الآن وصار يقول شعرًا وطنيًا إنسانيًا عظيمًا يهز القلوب ؛ لأنه يخاطب الجماهير التى لا تعرف النفاق ، وهو الآن يطلب رضاها بالتعبير عن أحاسيسها ، وأحمد شوقى الذى كان شاعر القصر الذى أوسع لنفسه مكانًا محترمًا فى الفكر العربى بما أدخله من أفكار جديدة اخترع لها لغة جديدة تجمع بين الرقة والجمال والصدق ، ثم أحمد بن القاضى المفكر الذى أصبح أديبًا ومؤرخًا للفكر دون أن يتنازل

عن ميزان القاضى ومنطقه وحقه فى إصدار الأحكام ، ولعل أعظم أدواره فى تاريخ الفكر العربى هى إدارته الحكيمة للجنة التأليف والترجمة والنشر التى كانت لسنوات طويلة قائدة الفكر العربى الحديث .

يقف بباب ولي النعم والأمراء والأميرات ويقول شعر المناسبات فأصبح شاعر الشعب وشاعر العروبة وشاعر الإسلام وشاعر المدائح النبوية الرفيعة .

ومن حوارى الإسكندرية يطرف سيد درويش منشداً شعبياً يتطور مع التيار إلى ملحن عظيم ومؤلف أوبرات ، ومحمود بيرم التونسى شاعرنا نحن الرعاع يصبح الآن شاعرًا جليلاً وأزجاله وكتاباتة تهز أفئدة الجماهير وتغضب السلطان والإنجليز فينفى من مصر ومن منفاه فى مرسيليا - وهو يعيش عيش الكفاف - مثله فى ذلك مثل الوهرانى وابن قزمان يرسل إلى مصر أزجاله ومقاماته ومقالاته التى يتهامس بها الناس وتنتقل بينهم كما تنتقل المهربات ، ومن نواحي باب الشعرية يخطو إلى عالم الفن محمد عبد الوهاب حاملاً معه موسيقى جديدة يرحب بها الشعب وينسى معها موسيقى البشارف والأدوار التى تتحول بكل رجالها إلى تراث موسيقى قديم يحفظ فى المتحف ، ويرتقى محمد عبد الوهاب بألحانه إلى مستويات شعر شوقى ومن فى طبقته ويصبح منشد العصر الصداح ، ومن كوم الزهايرة مركز السنبلالوين تأتى إلى القاهرة بنت فلاحه تلبس العقال - أم كلثوم - لتصبح أعظم مغنية فى تاريخ الموسيقى العربية كلها وإلى جانب إنشادها العظيم تصبح سيدة مجتمع ومفكرة ذات آراء رفيعة وحول أم كلثوم ينشأ جيل عظيم من الموسيقيين يتصدره محمد القصبجى ورياض السنباطى ومن هذا كله تتكون الموسيقى العربية الجديدة المضاهية للفكر الجديد .

ومحمد طلعت حرب الذى كان إلى ذلك الحين يتشاغل بالتاريخ فيؤلف فى تاريخ الدولة العثمانية يتحول إلى اقتصادى ينشئ البنوك والمصانع ؛ لأن الشعب الناهض فى حاجة إلى مصارف قومية ومصانع قومية ، ويظهر محمود مختار مثلاً عجيباً يرتد إلى مصر القديمة ويستوحى منها لينشئ فناً مصرياً فى الثالثة جديداً يبهر الدنيا ، فى الإسكندرية يظهر رسام عبقرى هو محمود سعيد ، ويوسف وهبى يضع قواعد المسرح العربى مع عزيز عيد وروز اليوسف وفاطمة رشدى ورجال فرقة رمسيس ، ونجيب الريحانى الذى بدأ حياته مهرجاً يكسب عيشه بالأعياب كشكش بك يتحول إلى فنان

أصيل وفيلسوف مفكر ، هذه الحركة كلها لم ينشئها سعد زغلول وحده إنما أنشأها الشعب المصرى العربى الذى أنشأ سعد زغلول نفسه واستجاب لندائه فتفجرت فيه جوانب العبقرية ، وهنا - فى ذلك الجو - تنشأ جماعة « الديوان » وهى أول حركة فكرية واعية فى تاريخ الفكر العربى و خلاصة رأيها : « إن عصر أدب القصور اللفظى المنافق السطحي قد انتهى وجاء عصر أدب الصدق والواقعية والإبداع والمعانى قبل الألفاظ » وكل الذين ظهوروا وكتبوا فى عصر النهضة هذا كانوا نقلة ، نقلوا الفكر العربى من ركود العصور الوسطى إلى حركة العصر الحديث ، ومن أبواب السلاطين إلى نوادى الناس ، ونقلوا التراث العربى القديم - وكان قد نسى تقريباً - إلى العصر الحديث نفصوا عنه التراب وجعلوا يبعثون فيه الحياة بما نسميه اليوم حركة إحياء التراث ، ونقلوا الفكر الغربى إلى عالم العرب وزرعوا أشجاره وغَيَّرُوا بذلك شكل بستان الفكر العربى وأشجاره وألوانه وزهوره وثماره ، وبعد أن قاموا بهذا الدور الكبير وهو دور لم يقتصر على النقل بل تتجلى فيه الشخصيات والملكات ويتميز كل منهم بمواهب لا تنكر فى الإبداع الفكرى المتعدد الألوان ، وكانوا على الجملة أصحاب أساليب أدبية جميلة وأفكار جديدة واطلاع واسع واحتاجوا إلى موضوعات يكتبون فيها فتحولوا فى النهاية إلى كُتَّاب إسلاميين يكتبون فى العبقريات الإسلامية أو السيرة أو على هامش السيرة ، حتى محمد حسين هيكل - الذى بدأ حياته الأدبية داعية مجدداً للفكر الغربى يكتب عن جان جاك روسو - اتجه فى النهاية إلى السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ، وهنا فى ميدان الإسلاميات مائدة واسعة يجلس إليها كل أديب عربى معاصر فرغت أفكاره فمال إلى الماضى الإسلامى يفترف منه ويدبج ما يقرأه بأسلوب جديد ، « على هامش السيرة » لطف حسين صياغة جديدة لبعض صفحات سيرة ابن هشام ، وعبقريات العقاد كلها كتب أسلوب ، واحد منها يغنيك عن الباقي ، وفى أسلوب العقاد الفكرى والأدبى القوى الرصين يتساوى أبو بكر وعمر وبلال بن رباح والحسين سيد الشهداء والإمام على ، بل توماس جيفرسون ، وجيته ؛ لأن عقل العقاد وقلمه كانا مثل البلدوزر يطحن أى شىء على المائدة الإسلامية الغنية بكل ما يطرب القارئ المسلم ، جلس نفر من أدباء الجيل التالى : جودة السحار ، وعلى أحمد باكثير ، وخالد محمد خالد ، وطاهر أبو فاشا ، وبقية أولئك المبدعين وتضخمت بهذا النوع من المؤلفات أعداد الكتب دون أن تكون فيها إضافات حقيقية أو تجديد لتصميم الفكر العربى ، كلها ديكور جديد لنفس البيت

القديم ، وهنا لا بد من ذكر ثلاثة من مجددي الفكر العربي : جورجى زيدان المؤرخ الأديب الذى كان أول من وضع تاريخاً جديداً للأدب العربى والحضارة العربية ، وسلامة موسى .

ولكن أعظم الأشجار الجديدة فى حديقة الفكر العربى الحديث هى أشجار القصص : القصة القصيرة والطويلة والرواية والمسرحية ، هذه كلها أشجار جديدة جداً فى بستان الفكر العربى ، ومن الخطأ الفادح أن نقول : إن الفن القصصى الحديث تطور للحواديت أو المقامات فهذه أنواع أدبية عقيم لا تتطور ، إنها كالأقزام تولد وتعيش وتشيوخ وتموت أقزاماً وهذا نوعها ، أما الأدب الروائى الحديث فشئ آخر تماماً ، شجرة جديدة وإذا كانت الحكايات والمقامات أشجار جميل فإن فن الرواية الجديد شجر تفاح والجميل لا يمكن أن يكون تفاحاً أبداً فإن القصص بكل أشكاله - هو وعاء الإبداع الفكرى - لأنه صورة الحياة . حياة الناس بكل ما فيها من واقعية وصدق والقصص الجيد بناء فنى لا مجرد إنشاء وهو لهذا أصعب الأنواع الأدبية وهنا يتجلى لنا حجم الدور الذى يقوم به توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويحيى حقى ويوسف إدريس ومحمد عبد الحليم عبد الله ومحمود تيمور ومن فى طبقتهم من بنساء الفن القصصى العربى بشتى أشكاله ، وإن الإنسان ليدهش لذلك التوفيق البالغ الذى وصل إليه توفيق الحكيم فى المسرحية ونجيب محفوظ فى الرواية والقصة القصيرة ولكن دهشتنا تزول عندما نذكر أن هذين العلمين يصدران فى أعمالهما عن إيمان صادق بمسئولية الأديب وأمانة القلم ومعرفة تامة بأصول الفن الذى يكتبون فيه ، وهما إلى جانب ذلك من أصحاب الاطلاع الواسع والمداومة على القراءة مع عمق الفكر والصدق فى القول والحرص الشديد على المحافظة على المستوى والالتزام بالمسئولية أمام النفس أولاً ثم أمام الآخرين .

على أن أهم ناحية فى إنشاء الفكر الجديد هى ناحية اللغة ؛ لأننا معاشر العرب لم ننتبه أبداً إلى أهمية اللغة أو قيم الألفاظ ، فالألفاظ فى الأدب العربى القديم يحرص بعضها إلى جانب بعض كما تنظم اللآلئ فى حفظ ليصير منها عقد ، وهذا هو الأدب فى المفهوم القديم فالألفاظ عندهم كاللآلئ تعطى العقد شكلاً ولكنها لا تعطيه معنى ، وقد بذل زكى نجيب محمود جهداً شاقاً فى كتاب « تجديد الفكر العربى » لبيان أهمية الألفاظ

وانتهى إلى ما انتهى إليه المفكرون غداة الثورة الفرنسية من أن الألفاظ ليست مجرد حاملات للمعاني بل هي نفسها ينبغي أن تكون معابد حية متحركة فاعلة ، والألفاظ كما يقولون هي الأدوات التي تصنع الأفكار ، واللفظ الدقيق في موضعه المحسوب يقطع المعنى قطعاً كأنه السكين الحاد فإذا لم يكن حاداً مسنوناً فإن المعانى تظل غامضة والفكر كله يصبح خباباً ، ومن أسف أننا أسأنا استخدام الألفاظ لغتنا وضيعنا قيمها ، وانظر مثلاً كيف تستعمل أفعال التوقيت : أصبح وأضحى وظل وأمسى وبات فكلها تستعمل دون تدقيق ففقدت حداثتها ولم تعد تقطع المعانى ونتيجة ذلك هو ذلك الضباب الفكرى الذى نعيشه نتيجة لضباب الألفاظ ، وهنا تأتى المهمة الحقيقية لمجمع اللغة العربية فإن وظيفته الأساسية ليست البحث عن معادلات عربية لمصطلحات علمية غير عربية ، بل ضبط معانى الألفاظ ومقاييس اللغة نفسها وضبط النحو ونحن نشكو اليوم من هبوط مستوى اللغة وجهل الناس بالقواعد ولا يرجع ذلك إلى هبوط مستوى تدريس اللغة فى المدارس والجامعات بل إلى أن الأفكار الجديدة تكتسح قواعد اللغة ونحن الذين نقوم بالكتابة نعانى هذه المشكلة ونشعر أن دقة التعبير أهم من فصاحة اللفظ ، فإن اللفظ العامى أو غير العربى إذا دخل اللغة وجرى فى الاستعمال أصبح عربياً ، ولفظ القلم نفسه ليس عربياً بل لاتينى الأصل Colamus ولكنه أصبح عربياً صرفاً ، وهو وارد فى الآيات الخمس الأولى التى أوحيت لرسول الله ﷺ ، وكما أن القرآن الكريم استعمل نفس الألفاظ لغة الجاهليين وصنع منها لغة جديدة ، واللغة الجديدة صنعت حضارة جديدة ، فنحن نستطيع أن نستشير بذلك المثل الرفيع فى إنشاء اللغة العربية الجديدة والفكر العربى الحديث .

وفى هذا الميدان لا بد أن نذكر ما يمتاز به يوسف إدريس من ملكة أصيلة فى الإبداع القصصى والفنى والفكرى ، وغرر رواياته ومسرحياته أصبحت بالفعل معالم واضحة فى تاريخ الفكر العربى ، وهنا أيضاً مكان على أحمد باكثير ويوسف السباعى وثروت أباطة وإحسان عبد القدوس « الذى يملك ملكة لا تضارع فى سياقه القصصى الجميل المحكم الذى يستهوى الجماهير » ويتميز ثروت أباطة فى رواياته بجدية وأصالة وطلاوة مع اطلاع واسع على الأدب العربى ، وهنا أيضاً مكان عبد الرحمن الشرقاوى الذى كتب واحدة على الأقل من أجمل الروايات فى الأدب العربى الحديث ، والطيب صالح صاحب الطيور المهاجرة وهى من أحسن ما نقرأ فى أدبنا المعاصر ، ونعمان

عاشور وسعد الدين وهبة وكل منهم شجرة جميلة متميزة بشخصيتها وهيئتها وثمرتها ، وهنا في ميدان القمص يكمن جانب كبير جدًا من مستقبل الفكر العربى ، ومن أعظم أشجار ذلك الفكر الجديد أشجار المفكرين الخالصين الذين يضاھون بنفاز أفكارهم وعمق تفكيرهم أعظم كُتَّاب الغرب ، وهنا مكان زكى نجيب محمود المفكر المجدد الأمين مع نفسه ومع الآخرين ، الذى لا يتملق الجماهير بل يحتفظ دائماً بدور المعلم القدير والأستاذ الموجه وكاشف الطريق .

وإلى جانب هذه الاتجاهات الجديدة نجد بستان الكتابة الصحفية التى لم تقف عند تجديد الأسلوب بل ابتكرت طرائق جديدة فى كتابة العربية حملت معانى جديدة وغيرت بذلك هيكل الفكر العربى وقالبه وأنشأت نوعاً جديداً من النشر الفنى الرفيع ، على رأس هذه الجماعة نجد محمد التابعى بأسلوبه الصحفى الممتع الذى كان يسحر القراء ونشأت منه مدرسة أدبية صحفية ، وفكرى أباطة وأمينة السعيد من كبريات رائدات النهضة النسائية والأدب الصحفى ، وعلى أمين ومصطفى أمين ومحمد حسنين هيكل وأحمد بهاء الدين ومحمد جلال كشك وأضرابهم من أعلام الكتابة الصحفية .

وبين هؤلاء يقف نزار قبانى وشعراء المقاومة الفلسطينية الذين اخترعوا شعراً عربياً جديداً وهم خطوة بعد إبراهيم ناجى وعلى محمود طه وزكى أبو شادى وجماعة أبولو الذين شقوا طريقاً جديداً لكنهم وقفوا فى منتصفه .

وهنا نجد مدرسة الأدباء الذين تعلموا فى المدرسة القديمة واستطاعوا أن يوسعوا لأنفسهم مكاناً فى النهضة الحديثة : مصطفى لطفى المنفلوطى الذى أدخل بنظراته وعبراته عناصر العاطفة الصادقة مع الأسلوب الرصين ، وأحمد حسن الزيات الجواهرجى فى صورة أديب ، ومصطفى صادق الرافعى حكيم الأدباء أو أديب الحكماء . هؤلاء انتهى دورهم فى صنع الأدب العربى الجديد ، وانتهى كذلك دور جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ومدرستهما التى حاولت أن تكتب الإنجليزية أو الفرنسية بحروف عربية ، ولم يبق حياً من مدرسة الشام إلا سعيد عقل .

وهنا أيضاً نجد جماعة الأكاديميين الذين وجدوا أن صفحات المجلات والصحف أقدر على حمل أفكارهم المتدفقة من كراسى الجامعة ، هنا تلقى أنيس منصور وهو يكتب بقلم قوى سريع النبض وأفكاره تنهمر كالسيل صادرة عن فكر عميق واطلاع

واسع وإبداع أدبي متميز ، وهنا أيضاً مجال مجدى تاريخ الأدب العربى ويمثلهم شوقى ضيف بتأليفه الشاسعة فى كل مجالات الادب العربى ، ومحمد عبد الغنى حسن الغزير الإنتاج الجيد إلى جانب ملكة فى الشعر جميلة ، ومهدى علام من أئمة مجدى اللغة ، وعبد القادر القط ، وطه الحاجرئ ، والمرحوم عبد العزيز الأهوانى من أعلام المجددين للغة والنقد الأدبى ، وفى رعييل أولئك المجددين نجد أهل العلوم ممن يربطون الإبداع الأدبى بالفكر العلمى ، هنا نجد : سلامة موسى ، والدكتور أحمد زكى ، وعبد الفتاح جوهر ، ومصطفى محمود الذى يقنعك كلامه عن الإعجاز القرآنى ببرهان العلم أكثر مما يرضيك كلام الباقلانى فى نفس الموضوع ببراهين الالفاظ .

وأخر ما أضيفه فى هذا التاريخ هو أن الإبداع الأدبى الجدير بذلك الاسم يقوم أساساً على العلم الواسع والصدق وإجادة العربية ، والقصاص بالذات من أوعر المطالب لأن القصة بناء متكامل ينبغى أن يكون محكمًا من البداية إلى النهاية فلا يكفى عنوان يبهر أصحابه فينشئ حوله حكاية يسميها قصة أو رواية ، أو يبدأ الحكاية ثم لا يعرف كيف يختمها ؛ لأن القصصى الجيد فعلاً يبدأ من النهاية ، أى أن انفراج الحكاية ينبغى أن يكون واضحًا فى ذهن القصاص قبل أن يكتب العنوان ، والحوادث ليست عماد القصة بل الفكرة هى الأساس ، وكل شخصية فى الرواية هى فى الحقيقة فكرة تتحرك مثال ذلك راستكولنيكوف فى الجريمة والعقاب فهو فكرة تتحرك وتتصرف لا مجرد شاب فقير قتل سيدتين عجوزين بغیضتين فإذا لم يكن للعمل القصصى موضوع وأفكار أو وحدة أو نهاية تحول إلى سلسلة مفاجآت أطفال كلها سطحية وبعيدة عن الواقعية أو إغراق مذموم فيها ، كما ترى فى مسلسلات التليفزيون التى تحول معظمها إلى حكايات أطفال يقوم بها رجال ونساء بلا شكل أو هيئة أو شخصية .

وأقول فى النهاية : إن تجديد الفكر العربى يقوم أساساً على تجديد العلم أو توسيع قاعدة المعرفة والاطلاع ، وليس هناك - فى الحقيقة - كاتب كبير ، بل هناك قارئ كبير ، ومن القارئ الكبير ينشأ الكاتب الكبير ؛ لأن قدر الكاتب يتوقف على غنى الإناء الذى يغترف منه ، والإناء لا بد أن يملأ ويتجدد محتواه باستمرار حتى لا يخرج فى الدلو فى النهاية إلا الوشل والرمل والرواسب غير المرغوب فيها .

وبعد ، فهذا ليس تاريخاً للأدب العربى أو أدباء العربية ، إنما هو تاريخ للفكر العربى وقد عنيت هنا بتتبع الأفكار والحركات وتطوراتها واهتمت بالجوانب الإنسانية والصدق وأمانة الفكر ومسئوليته ، ورأيت أن أساس أى فكر نافع هو الحرية والعدل ؛ لأن النسور المحلقة لا تعيش فى الأقفاص ، أما التى تعيش فى الأقفاص فهى طيور الزينة ، وهذه ليست طيوراً إنما هى زينة فحسب .

وبعد فهذا تاريخ طويل بدأناه من العصر الجاهلى ، وهو فى النهاية بحث صغير بالنسبة لموضوعه ، وأسأل القارئ الصفع عن الهفوات والزلات والنسيانات ، فقد طلبت مطلباً عسيراً وأنا رجل مفرد ، وماذا يبلغ جهد الرجل المفرد ؟ فالتقصير هنا ضرورة وحتم وهذا بالضبط ما قاله لودفيج فان بيتهوفن وهو يتصفح السيمفونية التى لم تتم لفرانز شوبرت ، فقد وقف حيث وقف شوبرت وقال : أين الباقي ؟ لقد ترك الكثير ، ولكنه قال أيضاً الكثير وهذا يكفيه ويكفينى .

تمت الدراسة بحمد الله

